



في صحبة المصطفى

دكتور جابر قميحة

جامعة إسلام آباد الإسلامية ◇ باكستان ◇

الإخراج الفني عادل البطراوى

دار الكتب الإسلامية

دار الكتاب اللبناني

دار الكتاب المصري

الطبعة الأولى

١٤٠٦ - ١٩٨٦ م

فِلَمْحُهَا تَبَرَّجُ

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

دار الكتاب المصري

القاهرة ٢٢

شارع قصر النيل - عن باب

١٥٦ - ٧٥٣٧١٧٥٦٩٨٣ - برقم الاكتام

TELEX 21581

A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

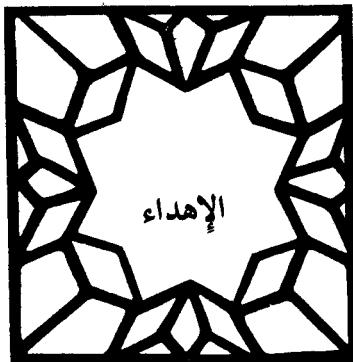
من باب ٣٧٦ - بيتا (كتابات)

٣٦٣٧٠ - ٣٦٩٠٥٥

TELEX No 22865 K.T.L

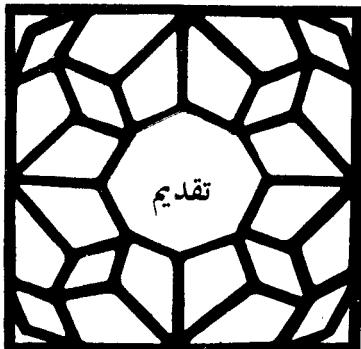
LE BEIRUT

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إلى صلاح الشربينى .. ابن المنصوره المسلم
الذى عاش مجاهدا ومات غريبا . إليه أهدى هذه
الصفحات

د . جابر قميحة



أرسل الله — سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقذ البشرية من الضلال والفساد والتهك والضياع .

وقد عاشت الرسالة الحمدية طوال هذه القرون الطويلة لا تبلى ولا تخلق على الرغم مما تعرض له المسلمون من نكبات في أنفسهم وأموالهم ولبلدهم وفكيرهم ، بل إن ما يحيّر أعداء الإسلام — وهم أصحاب الإمكانيات الهائلة في المال والقوة والسلاح والفكر — ما يرونه من انتشار الإسلام : وزيادة معتنقيه يوماً عن يوم ، وبخاصة كثير من كبار المفكرين والعلماء الغربيين .

ولا غرابة في ذلك فقد تكلفت السماء بحفظ الرسالة الخاتمة ﴿إِنَّا هُنَّ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، وهي الرسالة

التي جعل الله لها من القوة الذاتية ما يغذيها دائمًا بقدرة التجدد ، وتلبية حاجات كل عصر ، والاستجابة للتطورات الإنسانية في مجال العلم والخلق والإبتكار . ويقى واجب المسلمين وخصوصاً العلماء والمفكرين منهم أن يقدموا للمجتمع بصفة دائمة ما يربطهم بالرسالة وصحابها - عليه السلام - والسيرة النبوية كانت - وما تزال - منبعاً غنياً لا من الواقع والأحداث فحسب ، ولكن من القيم الأخلاقية والإنسانية والسياسية والاجتماعية . وما أخرج الشباب بصفة خاصة أن يقرعوا السيرة قراءة فهم ومعايشة ، وأن يتغذوا من نورها ما يلهمهم الصواب والرشاد ، ويضيء لهم الطريق في المجتمعات المعاصرة التي تتلاطم بتيارات الضالة المضللة ، والمبادئ التي أيسر ما يقال عنها أنها تتعارض مع أبسط قيم الإنسان ، وتهبط به إلى درك لا أنزل يقلمي إلى وصفه ، ويفع لسان عن الخوض فيه .

ومن سنوات مديدة قرأت كتاب «الشفا بتعريف حقوق
المصطفى» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسى^(١) وهو
سفر ضخم من جزئين تعد صفحاته بالملفات ، وظل لهذا الكتاب في
 وكانت
 سفر ضخم من جزئين تعد صفحاته بالملفات ، وظل لهذا الكتاب في
 نفسي مكانة أثيرة :

- فالرجل كتب كتابه بطاقة إيمانية قوية صادقة يحس القارئ
 ١ - أب
 ٢ - أمه
 ٣ - ذي فؤاد
 ٤ - ووالعنوا
 ٥ - رب الع
 ٦ - اغرة المخ
 بإشعاعاتها وانعكاساتها في كل سطر من الكتاب .
- والكتاب على الرغم من أنه يخاطب في المسلم «مشاعره الإيمانية»
 لم يهمل الجانب العقلاني ، فساق من الحجج والبراهين ما يقنع كل
 ذي فكر ناضج وعقل ثاقب .
- والكتاب لم يكن سرداً لواقع السيرة وأحداثها ولكنه أعطى
 الاهتمام الأكبر للشمائل واللامع النبوية ، وما يجب على المسلمين
 تجاه المقام الجليل لسيدنا رسول الله ﷺ .
- والكتاب يربط الرسالة الخامنة بغيرها من الرسائل ، كما يضع مقام
 النبوة الحمدية بين غيره من مقامات النبوات حتى يتعرف المسلمون
 على «الأصالة العقدية» للشريعة الإسلامية .
- وأخيراً يعيش المسلم مع المؤلف «كتاب الله وسنة رسوله» في
 هذا الحشد العظيم من الآيات الجليلة والأحاديث النبوية الشريفة ،
 قدمت
 وتحمس
 وكل ذلك ساقه المؤلف مساق الشواهد والأدلة .

(١) ولد سنة ٤٧٦ هـ وعاش حياة حافلة ، بالعلم وانتقل إلى رحمة ربه بمراكبش ببلاد
 المغرب في جمادى الآخرة ٥٤٤ هـ .

و حملت الكتاب معى في رحلتى المباركة إلى إسلام آباد ،
و حدثتني نفسي أن أقدم منه للقارئ العربي ما يفيده في دينه ودنياه .
و كانت هذه الفصول التي أسميتها « في صحبة المصطفى » وهو
يمثل . قطوفاً واستخلاصات من كتاب الشفا » وعلى أن أقدم بين
يدى القارئ الخطوط الآتية :

- ١ - أبقيت في هذه القطوف على الأسلوب الأصلى للمؤلف .. وهو
أسلوب يقترب إلى حد كبير من أسلوبنا العصرى .
 - ٢ - اكتفيت من الشواهد القرآنية وغيرها بما يسعف في التدليل على
السمة أو الواقعة لأن الشواهد من القرآن والحديث كثيرة
لا تتسع لها مثل هذه الصفحات .
 - ٣ - فسّرت في إيجاز ما يحتاج إلى تفسير حتى لا يجد القارئ مشقة
في الفهم وتصبًا .
- و واضح أننى لم ألتزم الترتيب الذى التزم به المؤلف ولم ألزم نفسى
بالعناوين التى صدى بها فصوله .

وأعترف في النهاية أن ما أقدمه في هذه الفصول لا يغنى عن قراءة
هذا السفر الضخم (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) . وإن
قدمت في هذه الفصول زهرة من هذه الروضة الخالدة تم عليها ..
وتحمس القارئ المسلم إلى ظلاتها النادية وعبرها الفواح والحمد لله
رب العالمين .

دكتور جابر قميحة

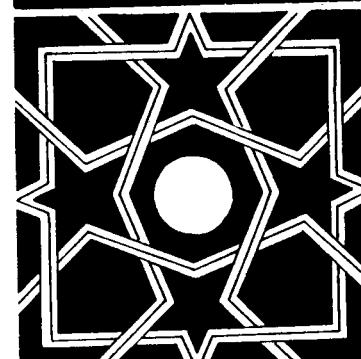
إسلام آباد - باكستان

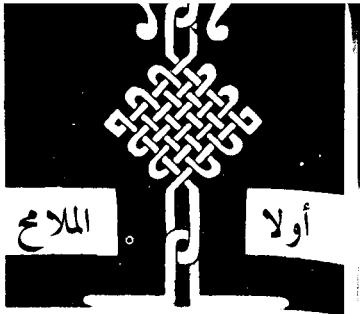
١٤٠٥ غرة الحرم

أولاً

كان
أشكل (٤)
، أفلج (٩)
، والصدر
العضدين
الأطراف

البائن ،
إلى الطور
، أبدى أ
تكلم رد
بقطهم (١٣)





أولاً . الملام الجسدية

كان رسول الله - ﷺ - أزهر اللون^(١) ، أدعج^(٢) ، أنجل^(٣) ، أشكل^(٤) ، أهدب الأشفار^(٥) ، أبلج^(٦) ، أزج^(٧) ، أقنى^(٨) ، أفلج^(٩) ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية ، سوأ البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عيل^(١٠) العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل^(١١) الأطراف ، أنور التجرد ، دقيق المسربة^(١٢) ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد ، ومع ذلك فلم يكن يماشي أحد ينسب إلى الطول إلا طاله - ﷺ - ، رَجُلُ الشِّعْرِ ، إِذَا افْتَرَ ضاحكا افتر «أبدى أستانه» عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حَبِّ الغمام ، إذا تكلم رُؤى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بعظامهم^(١٣) ، ولا مكلم^(١٤) ، متماسك البدن ، ضرب اللحم^(١٥) .

(٩) ثناياه متباينة

(١) مشرق اللون حسنة

(٢) شديد سواد الحدقة

(٣) واسع العينين

(٤) في بياض عينيه حمرة قليلة

(٥) كثير شعر الجففين

(٦) مشرق الوجه

(٧) دقيق شعر الحاجبين مع تقوسهما

(٨) مرتفع قصبة الأنف

(١٠) عيل : ضخم ومتلاء

(١١) تام

(١٢) المسربة : خيط الشعر الذي بين الصدر والسرير

(١٣) المطعم : المدور الوجه

(١٤) المكلم : المجتمع لحم وجهه

(١٥) خفيف اللحم

وقالت أم معد في بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلامهم وأحسنهم من قريب .

وفي حديث ابن أبي هالة يتلألاً وجهه تلألاً القمر ليلة البدر .
وقال عليّ في آخر وصفه له : من رأه بدئيّة هابه ، ومن خالط
معرفةً أحبه .

★★★

ومن أبرز صفاته نظافة جسمه ، وطيب ريحه وعرقه ، ونزاهة فذهبته عن الأقدار ، وعورات الجسد^(١) ، فكان أن خصه الله تعالى في ذلك حيا ومه بخصائص لم توجد في غيره ، ثم تمها بنظافة الشرع ، وخصوصاً ومه الفطرة العشر^(٢) .

وقال عليه السلام « بُنُى الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ ». غير مَدْعُونَ
وعن أنس - رضي الله عنه - قال « ما شئت عنيراً قط ، وابتسم ،
مسكاً ، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله - ﷺ - ». من صب
وروى أن النبي - ﷺ - لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد إلا
عرف أنه سلكه من طيبه .

وكاد الأخبار
وعن عليّ - كرم الله وجهه - قال « غسلت النبي - ﷺ -
وصار

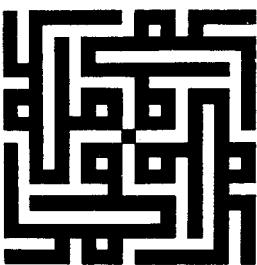
مرات ،

(١) أى النقص والعيوب الجسدية

(٢) سنن الفطرة هي : قص الشارب ، وإغفاء اللحية ، والمضمضة ، والسواك ، (١) أى واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، وتنف الإبط ، وتنف شعر العادة
(٢) راء . وانتقاص الماء أى الاستنجاء ، وقد يضاف إليها الحثان بدل المضمضة . إحياء علوم
اللماض عيادة

بدر .

حالات



نزاهه فذهبت أنظر ما يكون من الميت^(١) ، فلم أجد شيئاً ، فقلت : طبت
ذللاحيَا وميتاً ، وسطعت منه رائحة طيبة ، لم نجد مثلها قط^(٢) .

خاصاً ووصفه أبو هريرة بقوله « ما رأيْت أحداً أسرع من رسول الله —
عليه السلام — في مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو
غير مكترت . وفي صفتة — عليه السلام — أن ضحكته كان
تبسمًا ، إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى تقلعاً ، كأنما ينحط
من صبب . »

★★★

حد

وكان — عليه السلام — قوى الجسد والتحمل ، وقد جاءت
الأخبار بأنه صرع رُكَانَة أشد أهل وقته ، وكان دعاه إلى الإسلام .

وصارع أبا ركانت في الجاهلية ، وكان شديداً ، وعاوده ثلاثة
مرات ، كل ذلك يصرعه رسول الله — عليه السلام .

سواءك

ر العان

(١) أي من خبث ورائحة كريهة .

(٢) راجع المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٤٦ حديث رقم ٣٠٢ . رأى العراق في
حياة علوم الدين للغزلي كتاب الطهارة ج ١ ص ١٢٤ طبعة عيسى الحلبي هامش الشفا
للقاض عياض ج ١ ص ١٥٢ ط مكتبة الفارابي .



الملاحم الخلقية والنفسية والعقلية

شانہ

و

三

وَأَ

فینا

٦١

٦١

٦١

و

فيها ، دون الميل إلى منحرف أطراها ، وجميعها قد كانت خلقاً وهـ
نبينا - ﷺ - على الانتهاء في كلها ، والاعتدال إلى غايتها حتى تعالى :
أثني الله عليه بذلك ، فقال تعالى :

و

جبریل

ذهب

٦

وقال

(١) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً^(٢) عليهما في أصل خلقته ، وأول ونطعه فطرته ، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة ، إلا بجود إلهي ، وحال وخصوصية ربانية ، وهكذا لسائر الأنبياء .

٤) القلم

(٢) عجولاً : مطبوعاً.

ومن أهم الملام المعنوية في سيدنا رسول الله - ﷺ -

(١) الحلم والاحتمال والعفو :

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة ، والصبر على ما يكره فيه فروق :

فالحلم : حالة تُؤْفَرُ وثبات عند الأسباب والمحركات .

والاحتمال : حبس النفس عند الآلام والمؤذيات .

والصبر : مثله .

والعفو : هو ترك المواجهة .

س

حلق وهذا كله مما أدب الله - تعالى - به نبيه - ﷺ - فقال

حتى تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَنَاحِلِينَ﴾ (١)

وقد روى أن النبي - ﷺ - لما نزلت عليه هذه الآية سأله جبريل عليه السلام - عن تأويلها ، فقال : حتى أسأل العالم ، ثم ذهب فأتاه فقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تصلك من قطعك ، أول وتعطى من حرمك ، وتعفو عن ظلمك .

وقال تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (٢) .

(١) الأعراف : ١٩٩ .

(٢) الأحقاف : ٣٥ .

وروى أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد ، شق ذلك على أصحابه شقا شديدا ، وقالوا : لو دعوت عليهم : فقال « إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا ، وَلَكِنِّي بَعَثْتَ دَاعِيَا وَرَحْمَةً ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمًا فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ». .

فانظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم : إذ لم يقتصر - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على السكتة عنهم ، حتى عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا وشفع لهم ، فقال « اغفر » ، أو « اهد » ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله « لقومي » ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال « فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ». .

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة بـ بَعْلَه (١) اعتراها .

وكذلك لم يؤخذ عبد الله بن أبي بن سلول وأشياهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قوله وفعلا ، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم « لا . لئلا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه ». .

قالت عائشة - رضي الله عنها - « ما رأي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ، مالم تكن حرمة من محارر الله ، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وهو ضرب خادما ولا امرأة ». .

(١) هذا هو الراجح من أمرها ، وإن ذهبت بعض الروايات إلى أنه أمر بقتلها . وكان ذلك في غزوة خيبر .

وجهه عوت رحمة سان سر عليه أظمه فقا

وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتلاضاه دينا عليه ، فجذب ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، ثم قال « إنكم يا بني عبد المطلب مطل »^(١) ، فانهله عمر ، وشدد له في القول ، والنبي - ﷺ - يتنسم ، فقال رسول الله - ﷺ - « أنا ، وهو ، كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي » ثم قال « لقد بقى من أجله ثلاثة » وأمر عمر يقضيه ماله ، ويزده عشرين صاعاً لما روعه . وثُجِّم الآثار على أن رسول الله - ﷺ - كان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضي .

(٢) الجود والكرم

تتقارب معاني الجود والكرم والساخاء والسامحة ، وقد فرق بعضهم بينها بفارق ، فجعلوا الكرم : الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه ، وسموه أيضاً جرأة ، وهو ضد النذالة . والسامحة : التجاف عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس ، وهو ضد الشكasaة^(٢) .

والساخاء : سهولة الإنفاق ، وتجنب اكتساب مالاً يحمد ، وهو ضد التقتير .

(١) أى تماطلون وتسوفون في الوفاء بحقوق الآخرين .
(٢) الشكasaة : سوء الخلق ومنه قوله تعالى : « شركاء متشاكرون » أى متشاجرون لشکاسة خلقهم . اهـ المفردات في غريب القرآن .

لناقيم بقفل الله محارب وما

و كان النبي - ﷺ - لا يُوازى في هذه الأخلاق الكريمة ، ولا
يُبارى ، وبهذا وصفه كل من عرفه :
يقول جابر بن عبد الله ما سئل رسول الله - ﷺ - عن شيء
قال لا .

وقال ابن عباس : كان النبي - ﷺ - أجود ما كان في شهر
رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل - عليه السلام - أجود بالخير من
الريح المرسلة .

ويروى أن رجلا سأله فأعطاه غنا بين جبلين فرجع إلى قومه ،
وقال : أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة .

وأعطي غير واحد مائة من الإبل .

وأعطي صفوان مائة ثم مائة ، ثم مائة .

ورد على هوازن سبایاها ، وكانت ستة آلاف .

وحمل إليها تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها
فقسمها ، فما رد سائلًا حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندك شيء ، ولكن ابتعن علىّ ،
إذا جاءنا شيء قضيناه .

فقال له عمر - رضي الله عنه - : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ،
فكره النبي - ﷺ - ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله
أنفق ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

فتسم - ﷺ - وعُرف البشر في وجهه ، وقال : « بهذا
أمرت »

لـ وأتاه رجل يسأله ، فاستلف له رسول الله - عليه السلام - نصف
وست ، فجاء يتلقاها ، فأعطاه وسقا ، وقال « نصفه قضاء ،
ونصفه نائل »

(٣) الشجاعة والتجدة :

الشجاعة : فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل .
والتجدة : ثقة النفس عند استسلامها إلى الموت ، حيث يحمد
 فعلها دون خوف .

وكان النبي - عليه السلام - بالمكان الذي لا يجهل ، وقد حضر
الموقف الصعبة ، وفر الكثرة والأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا
يرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وأحصيت له
فراة ، وحفظت عنه جولة سواه .

عن العباس - رضي الله عنهما - قال : فلما التقى المسلمين
والكفار - في حنين - ول المسلمين مدربين فقطق رسول الله -
عليه السلام - يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بجامها ، أكُفُها إرادة أن
لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بر كابه ، ثم نادي « يا المسلمين » .

وقال علي - رضي الله عنه - : إنما كننا إذا حمى البأسُ وأحرثَ
الحدق ، اتقينا برسول الله - عليه السلام -. فما يكون أحد أقرب إلى
العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي - عليه السلام - وهو
أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

ولما رأى أبي بن خلف يوم أحد ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا
نجوت إن نجا ، وقد كان يقول للنبي - عليه السلام - عندما افتدى يوم

بدر : عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا^(١) من ذرة أقتلك عليها . فقال
له النبي - عليه السلام - « أنا أقتلك إن شاء الله » فلما رأه يوم أحد
شد أبيه - وهو على فرسه - على رسول الله - عليه السلام - فاعتربه
رجال من المسلمين ، فقال النبي - عليه السلام - « هكذا » أى خلوا
طريقه ، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنها تطاير الشعرااء^(٢) عن ظهر
البعير إذا انتفض ، ثم استقبله النبي - عليه السلام - فطعنه في عنقه طعنة
تدأداً^(٣) منها عن فرسه مرارا ، فرجع إلى قريش وهو يقول : « قتلني
محمد » . وهم يقولون « لا بأس عليك » « فقال » لو كان ما في
جميع الناس لقتالهم . أليس قد قال « أنا أقتلك والله لو بصدق على
لقتلني »

فمات بسرف^(٤) في قفوهم إلى مكة .

(ب) الحياة والاغصاء :

الحياة : رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته ، أو
ما يكون تركه خيرا من فعله .

والاغصاء : التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته . وكان النبي -
عليه السلام - أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغصاء .

(١) مكيال يساوى ستة عشر رطلا .

(٢) الشعرااء : ذباب يقع على ظهر الإبل والحيوان فيؤذيه .

(٣) تدأداً : تدرج .

(٤) سرف : مكان في مكة على مسافة ستة أميال .

قال تعالى ..
أحد
رضه
خلوا

﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ

كَانَ يُؤْذِي أَلَّا نِيَ فَبَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ ﴾^(١)

علي

ومن عائشة — رضى الله عنها — كان النبي — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إذا بلغه
عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول :
« ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا » يعني عنه ، ولا يسمى
قتلني فاعله .

وقالت عائشة — رضى الله عنها — في الصحيح : لم يكن
النبي — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فحاشاً ، ولا مفتحنا ، ولا صخاباً في الأسواق .
ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .

وروى عنه : أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد ،
وأنه كان يكتنى عمما اضطرره الكلام إليه مما يكره^(٢) .

، أو

٥) حسن العشرة والأدب وبسط الخلق :

قال علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — في وصفه عليه الصلاة
والسلام « كان أوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم
عربيكة ، وأكرمهم عشرة ». —

(١) الأحزاب : ٥٣ .

(٢) قال السيوطي : أنه كان يكتنى عمما اضطرره الكلام إليه معلوم من أحواله وأقواله في
الأحاديث المشهورة أهـ محقق الشافعى ج ١ ص ٢٤٣ .

وكان رسول الله - ﷺ - يُؤلفهم ، ولا ينفرهم ، ويكرم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويخترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ، ولا خلقه . يتعهد أصحابه ، ويعطى كل جلساً نصيبيه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

من جالسه أو قاربه لحاجة صابرها حتى يكون هو المنصرف عنه .

ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بيسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء .
قال أنس - رضي الله عنه - خدمت رسول الله - ﷺ - عشر سنين ، فما قال لي « أَفَ » فقط ، وما قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟؟ .

وكان يمازح أصحابه ، ويختلطهم ، ويحادthem ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم في حجره ، ويحبب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عنز المعتذر .

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبداً أصحابه بالمصافحة ، ولم يرقط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد ، يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أُنى ، ويكتنِي أصحابه^(١) ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنى أو قيام ، وروى أنه كان لا يجلس إليه أحد ، وهو يصل إلـ — حـنـفـ صـلـاتـهـ ، وـسـأـلـهـ عـنـ حاجـتـهـ ، فـإـذـاـ فـرـغـ عـادـ إـلـىـ صـلـاتـهـ .

(١) لأن نداء الرجل بكتبه فيه توقير وتكريم له على ما تعارف العرب .

يكرم ، من ، نابه ، عليه

وكان أكثر الناس تبسمًا ، وأطيبهم نفسا ، مالم ينزل عليه قرآن ،
أو يعظ ، أو يخطب^(١) .

عنه . وسع واء .

(٦) الشفقة والرحمة

قال بعض السلف « من فضله — عَلَيْهِ الْكَرَمَةُ — أن الله تعالى أعطاه
اسمين من اسمائه ، فقال

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢)

وروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال
« أحسنت إليك » ؟ قال الأعرابي « لا ، ولا أجلت » فغضب
المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم : أن كفوا ، ثم قام ودخل
منزله ، فأرسل إليه — عَلَيْهِ الْكَرَمَةُ — ، وزاده شيئا ، ثم قال : « أحسنت
إليك » ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة » فقال له
النبي — عَلَيْهِ الْكَرَمَةُ — « إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من
ذلك شيء ، فإن أحبيت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى
يذهب ما في صدورهم عليك » قال « نعم ، فجزاك الله من أهل
وعشيرة خيرا »

لم : اعب الأمة ندر . يرقط بدخل عليه أحب بقطعة لى إلا

(١) أى إلا في المواقف الحادة والمسائل الجلى التي لا تحتمل التساهل وغض النظر .

(٢) يونس ١٢٨ .

و من شفقته — عليه السلام — أن دعا ربَّه و عاهده . فقال « أيمَّا رجل سببُتْه ، أو لعنتُه ، فاجعل ذلك له زكاة و رحمة ، و صلاة و ظهورا ، و قربة تقرُّبُه بها إِلَيْكَ يوْم القيمة » .

وروى أن جبريل — عليه السلام — قال للنبي — عليه السلام — « إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك » فقال : « أُؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم » .

(٨) وعن عائشة — رضي الله عنها — أنها ركبت بغيراً وفيه صعوبة فجعلت تردد ، فقال رسول الله — عليه السلام — « عليك بالرفق » .

(٧) الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم :

يروى أن النبي — عليه السلام — كان إذا أتى بهدية قال : اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة خديجة ، إنها كانت تحب خديجة .

ولما جاءه وفد لنجاشي الحبشة قام رسول الله — عليه السلام — يخدمهم . فقال لهم أصحابه « نكفيك » فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مُكرّمين ، وإنني أكافئهم » .

ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء^(١) في سبايا هوازن ، و تعرفت له ، بسط لها رداءه ، وقال لها « إن أحببت أقمت عندى مكرمةً محبةً ، أو متعتك ، ورجعت إلى قومك » فاختارت قومها فمتعها .

(١) هي بنت حليمة السعدية التي أرضعت النبي — عليه السلام —

وكان يبعث إلى ثوبية — مولاً أى هب — مرضعته بصلةٍ
وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقى من قرابتها فقيل لا أحد .

وفي حديث خديجة — رضي الله عنها — أنها قالت له —
عليه السلام — أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ،
وتتحمل الكل ، وتكتسب المدعوم ، وتقربى الضيف ، وتعين على
نوائب الحق .

(٨) التواضع :

وأما تواضعه — عليه السلام — على علو منصبه ، ورفعه رتبته ، فكان
أشد الناس تواضعا ، وأعدمهم كثرا .

وقد روى أنه قال لبعض الصحابة حين خرج عليهم فقاموا احتراما
له « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا » .

وقال : إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس
العبد .

وكان يركب الحمار ، ويُرْدف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس
الفقراء ، ويحبب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم ، حينما
انتهى به المجلس جلس .

وقال أنس : « حج رسول الله — عليه السلام — على رخل رَبِّ ، وعليه
قطيفة ما تساوى أربعة دراهم ، فقال : « اللهم اجعله حجا
مبورا ، لا رباء فيه ولا سمعة » .

ويروى أنه — عليه السلام — كان في بيته في مهنة أهله^(١) ، يغلى

(١) في مهنة أهله : أى يقوم بما تقوم به زوجاته من أعمال منزلة : إشفاقاً عليهم
وتواضعا .

ثوبه ، ويخلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويُقْمِّ الْبَيْت ، ويعقل البعير ، ويلعف ناضحة ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

وَعَنْ أَنْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَتَنْطَلِقُ بَهُ حَيْثُ شَاءَتْ حَتَّى تَقْضِيَ حاجَتَهَا .

وقال أبو هريرة — رضى الله عنه — دخلت السوق مع النبي ﷺ « فاشترى سراويل ، وقال للوزان « زن وأرجع » .. فوثب إلى يد النبي — ﷺ — يقبلاها ، فجذب يده ، وقال : « هذا ما تفعله الأعاجم بملوکها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ». .

(٨) العدل والأمانة والمهنة وصدق الهيئة.

وأما عدله ، وأمانته وعفته ، وصدق لهجته ، فكان صلوات الله عليه من الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف بذلك hammad^(١) وعدها .

وكان يسمى قبل نبوته الأمين :

وقال تعالى:

مطاع ثم أمين (٢)

(١) محادوہ : ای مخالفہ .

٢١) التكوير .

حتى أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ .

وقال — عليه السلام — : « والله إلى الأمين من في السماء أمين من في الأرض ». .

وقال النضر بن الحارث (١) لقريش « قد كان فيكم محمد غلاماً أو حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلم : ساحر !! لا والله ما هو بساحر ». .

وقال عليه السلام : « ما همت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما همت بسوء حتى أكرمني الله برسالته : .

قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لي غنمى حتى أدخل مكة فأسر بها كما يسمى الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة ، وسمعت عزفًا بالدفوف والمزامير لغرس بعضهم ، فجلست أنظر فضرب على أذني فهمت ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم غراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهتم بعد ذلك بسوء ». .

(١) وهو أحد الكفار العناة ، وقد أمر النبي — ﷺ — بقتله بعد بدر .

(١٠) الوقار والصمت والمرودة وحسن الهدى :

قال بعض الصحابة : كان النبي — ﷺ — لا يتكلّم في غير حاجة ، ويعرض عن تكلّم بغير جميل .

وكان ضحكه تبسم ، وكلامه فَضْلًا ، لا فضول ولا تقدير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرًا له واقتداء به .

مجلسه مجلس حلم وحياة وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا ثُؤْبِنُ^(١) فيه الحُرْمَ ، فإذا تكلّم أطريق جلساً كأنما على رعوسهم الطير .

قال ابن ابن أبي هالة : كان سكوته على أربع : على الحلم ، والخذر ، والتقدير ، والتفكير .

قالت عائشة — رضي الله عنها — « كان رسول الله — ﷺ — يحدث حديثاً لوعده العاد أحصاه » ومن مروءته نهيه عن النفح في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يليل ، والأمر بالسواك ، وإنقاء البراجم^(٢) والرواجب^(٣) ، واستعمال خصال الفطرة .

(١١) الهدى في الدنيا :

عن عائشة — رضي الله عنها — قالت ما شبع رسول الله — ﷺ — ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسيله .

(١) ثؤبَنْ : تناول وتجريح .

(٢) البراجم : جمع برجمة ، وهي مفصل الأصابع من ظاهر الكف .

(٣) الرواجب : جمع راجبة : وهي مفصل الأصابع من باطن الكف .

وقالت « ماترك رسول الله — ﷺ — دينارا ، ولا درهما ، ولا شاة ، ولا بعيرا .

وقال عليه الصلاة والسلام « إني عرضت على أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فاما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

وعن عائشة — رضي الله عنها — إنما كان فراشه — ﷺ — الذى ينام عليه أدما ، حشوة ليف .

وعن عائشة — رضي الله عنها — قالت : لم يمتلئ جوف النبي — ﷺ — سبعا فقط ، ولم يبت شكوى إلى أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع فلا ينفعه صيام يومه . ولو شاء سأله ربها جميع كنوز الأرض وثمارها ، ورغد عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح يدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك !! فيقول : يا عائشة . مالى وللدنيا ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالمهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرم ما بهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى استحقى إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم . وما من شيء هو أحب إلى من اللحوق بإخواتي وأخلاقني » .

قالت : فما أقام بعد إلا شهرا حتى توف — ﷺ .

(١٢) استغفـر من الله والطاعة له وشدة العبادة :

وأما خوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه
بربه .

قال عليه السلام « إني أرى مالا ترؤون ، وأسمع مالا تسمعون ،
أطّث(١) السموات ، وحقّ لها أن تُنَظَّم . ما فيها موضع أربع أصانع
إلا وملكٌ واضحٌ جبهته ساجداً لله . والله لو تعلمونَّ ما أعلمُ لضحكتم
قليلاً ، ولبكيركم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، وخرجتم إلى
الصُّعُدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى الله .. »

وروى أنه — عليه السلام — كان يصلى حتى ترمي قدماه ؛ فقيل له :
أتتكلّف هذا ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!
قال : أفلأ كون عبداً شكوراً !!

وقال عوف بن مالك — رضي الله عنه — كنت مع رسول
الله — عليه السلام — ليلة ، فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلى ، فقمت
معه . فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأله(٢) ،
ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ(٣) ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه
يقول : سبحان ذي الجبروت والملائكة والكربلاء والعظمة » ، ثم
سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سوره يفعل مثل
ذلك .

(١) أحدثت صوتاً ثقل ما تحمل فوقها .

(٢) أي توقف عن مواصلة القراءة ليضرع إلى الله بالسؤال .

(٣) أي : دعا الله أن يعيذه ويقيه والمسلمين عذاب النار .

قال أحد الصحابة . كان رسول الله — ﷺ — متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة .

وقال آخر : أتيت رسول الله — ﷺ — وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز الرجل .

وقال ﷺ : « إِنِّي لَأُسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مائة مَرَّةٍ » وروى (سبعين مرّةً) .

أوقي النبي — ﷺ — جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، وبجاورها بلغتها ، وبيارها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

وليس كلامه مع قريش والأنصار ، وأهل الحجاز ، ونجد ككلامه مع أقیال^(١) حضرموت وملوك اليمن :

وانظر كتابه إلى همدان « إن لكم فراعها^(٢) ، ووهاطها^(٣) وعزازها^(٤) ، تأكلون علافها^(٥) ، وترعون عفاءها^(٦) ... »

(١) أقیال : جمع قیل : وهو الحاكم والأمير .

(٢) الفراع : ما أرفع من الأرض .

(٣) الوهاط :

الأرض المطمئنة .

(٤) العزار :

ما خشن من الأرض .

(٥) العلاف :

علف الماشية .

(٦) العفاء :

المباح الذي لا يملكه أحد .

ومن كتابه لوابل بن حجر الملك الحميري « إلى الأقىال العباهلة »
والأروع (٢) المشايب (٣) ... »

فـلما كان كلام هؤلاء على هذا الحد ، وبلا غتهم على هذا النـطـاق
وأكـثـر استـعـالـهـمـ هـذـهـ الـأـلـفـاظـ اـسـتـعـالـهـاـ معـهـمـ ،ـ لـيـبـيـنـ لـلـنـاسـ ماـ نـزـلـ
إـلـيـهـمـ ،ـ وـلـيـحـدـثـ النـاسـ بـمـاـ يـعـلـمـونـ .

وأما كلامه المعتمد ، وفضاحته المعلومة ، وجوابه كلامه .
وحكمة المؤثرة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، وجمعت في ألفاظه
ومعانيها الكتب . ومنها :

« المسلمين تتكافأ دمائهم ، ويُسْعى بذمتهم أدناهم ، وهم يَة يَنْعَنِي على من سواهم ». وَقَوْلُهُ

« المرء مع من أحب ». .

« الناس كأسنان المشط ». .

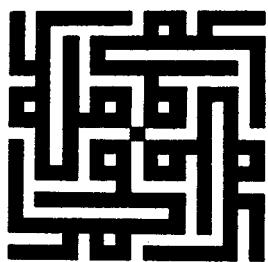
«أحباب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغرضك يوماً ما » .
«الظلم ظلمات يوم القيام » .

« اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، ح
نُظمن عيش السعداء ، والنصر على الأعداء ».

(١) العباهلة : ملوك اليمن

(٢) الأرواء : مشرق الوجه .

(٣) المشابه : السادة .



ل ،
زيل
عليها :

- حى الوطيس .
- مات حتف أنفه .
- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

يد ،
يقد قال له أصحابه : ما رأينا الذي هو أفعص منك فقال « وما
يعتني !! وإنما أنزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين »

وقال مرة أخرى « أنا أفعص العرب ، ييد أنى من قريش
ونشأت في بني سعد »^(١)

فجمع له بذلك — عليه اللهم — قوة عارضة البدية وجزالتها ،
ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي
مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشرى .

وقالت أم عبد في وصفها له :

حلو المنطق ، فصل^(٢) ، لا نزّر ولا هنْر^(٣) كان منطقه خرزات^(٤)
نظم . وكان جهير الصوت حسن النغمة .

(١) هذا الحديث رواه أصحاب الغرائب ، ولا يعرف له سند .. الخ

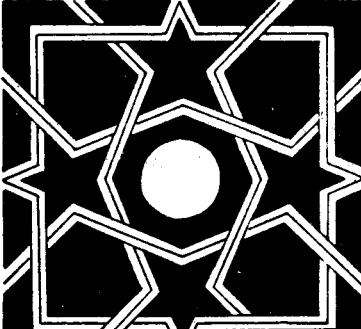
(٢) فصل : واضح مبين ، أو قاطع في حكمه .

(٣) أى : لا يوجز الإيجاز المخل ، ولا يطبع الإطباب الذي لا فائدة منه .

(٤) جواهر .

الفصل الثاني

شرف النسب
و
جلال المنشأ



وشرف نسبه ، وكرم بلده ومنتجئه لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ،
ولا بيان مشكل ، ولا خفى منه .

فإنه نخبة^(١) بنى هاشم ، وسلامة قريش وصهيونها ، وأشرف العرب
وأعزهم نفرا من قبيل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة ، من أكرم بلاد الله
على الله ، وعلى عباده .

ويروى عنه — عليه السلام — أنه قال « إن الله اصطفى من ولد
إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كانانة ، واصطفى
من بنى كانانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى
من بنى هاشم كما يروى عنه قوله :
« بعثت من خير قرون بنى آدم فرقنا ، حتى كنت في
القرن الذي كنت منه » .

★★★

وعن ابن عباس — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله —
عليه السلام — :

إن الله تعالى قسم^(٢) الخلق قسمين ، فجعلني في خيرهما قسما ،
فذلك قوله تعالى « وأصحاب اليمين » « وأصحاب الشمال » ، فأننا
من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين .

(١) النخبة : الخلاصة والصفوة .

(٢) حديث أن الله تعالى قسم الخلق — المأخرجه البيهقي في دلائل النبوة بهذا اللفظ ج ١
ص ١٣٢ طبع المكتبة السلفية المدينة المنورة وأخرجه الميثمي في مجمع الروايات في كتاب
علمات النبوة « باب : في كرامة أصله — عليه السلام .

ثم جعل القسمين أثلاثا ، فجعلتني في خيرها ثلثا ، فذلك قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة وأصحاب المشامة والسابقون السابقون » فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلتني من خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (١)

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَّقَبَابِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ أَنْتَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴾ (٢)

فأنا

أتقى ولد آدم ، وأكرمهم على الله عز وجل ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتا ، فجعلتني من خيرها بيتا ، فذلك قوله تعالى : (٣)

﴿ إِنَّمَا

بُرِيدَ اللَّهُ لِيُدِهَّبَ عَنْكُمُ الْرِّجَسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

وروى عنه — عليه السلام — أنه قال : أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبل : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وظهورا ، فلما رأي أدركه الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تخل لنبي قبل ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة ،

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) الأحزاب ٣٣ .

وعنه عليه السلام :

« أنا محمد النبي الأمي ، لانبي بعدي ، أُوتِيت جوامِع الكلم
وحوافِه ، وَعْلَمْتُ خزنة النار ، وَحَلَةَ العرش ». .

وروى عنه — عليه السلام — قوله :

« ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أغطى من الآيات ما مثله آمن
عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتِيتَ وخِيَاً أُوحِيَ اللهُ إِلَيْهِ ، فَأَرْجُو
أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تابِعاً يَوْمَ القيمة ». .

معنى هذا عند المحققين : بقاء معجزته ما بقيت الدنيا ، وسائل
معجزات الأنبياء ذهبت للجحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها .
ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عيانا لا خبرا إلى يوم
القيمة . .

وقال عليه السلام « إن الله قد حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها
رسوله والمؤمنين ، وأنها لا تخلُ لأحد بعدي ، وإنما أحْلَتْ لِي ساعةً
من نهار ». .

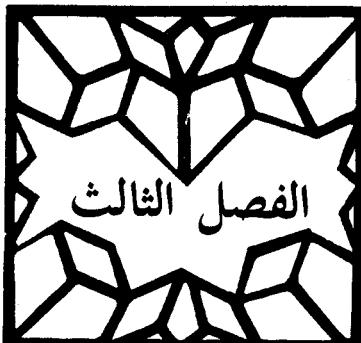
★★★

وقال له نفر من صحبه : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك . فقال :
أنا دعوة أبي إبراهيم — يعني قوله :^(١)

﴿ رَبَّنَا وَآبَغْتُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾

(١) البقرة ١٢٦ .

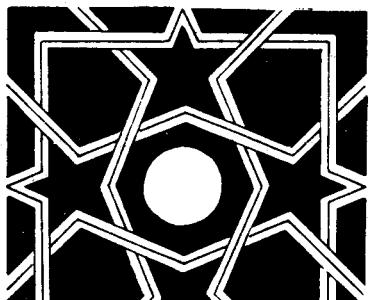
وبشر بي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور
أعضاءها قصور بصرى من أرض الشام . واسترضعت في بنى سعد
ابن بكر ، فيينا أنا مع آخر لي خلف بيوتنا ترتعى بهما لنا ، إذ جاءنى
رجلان عليهما ثياب بيض بسطت من ذهب مملوء ثلجا ، فأخذاني ،
فشقا بطني ، ثم استخرجا منه قلبى ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة
سوداء فطرحها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى
أنقياه ... »



الفصل الثالث



الرَّسُولُ الْمَغْصُومُ



قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ يَعِصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ كَافِ عَبْدَهُ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ ﴾ (٥)

(١) المائدة من الآية ٧٠ .

(٢) الطور من الآية ٤٨ .

(٣) الزمر من الآية ٣٦ .

(٤) الحجر ٩٥ .

(٥) الأنفال : ٣٠

وروى أن النبي — ﷺ — كان إذا نزل منزلًا اختار له أصحابه شجرة يقبيل تحتها ، فأتاه أعرابي فاخترط^(١) سيفه ، ثم قال : من يمنعك مني ؟ فقال « الله عز وجل » ، فأرعدت يد الأعرابي ، وسقط سيفه ، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه فنزلت الآية^(٢)

﴿ وَاللَّهُ يَعِصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

وقيل بل عفا عنه فرجع إلى قومه ، وقال جنتكم من عند خير الناس .

وقيل أن غورث بن الحارث الحارثي أراد أن يفتك بالنبي — ﷺ — فلم يشعر به (النبي) إلا وهو قائم على رأسه متضيا^(٣) فقال : « اللهم اكفني بما شئت » ، فانكب من وجهه ، وندر^(٤) سيفه من يده . وذكر أنَّ فيه نزلت : ^(٥)

﴿ يَنْأِيْهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ ﴾

(١) سل .

(٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) انتهى سيفه : سله

(٤) ندر : سقط .

(٥) المائدة : ١١ .

بابه
من ،
آية (١)

ويقال أن حمالة الخطب (١) كانت تضع العضبة (٢) وهي جمز (٣) — على طريق رسول الله — ﷺ . فكأنما يطؤها كثياباً أهيل (٤) .

وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول قوله تعالى: (٥)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الدم ، أنت رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، وفي يدها فهر (٦) من حجارة ، فلما وقعت عليهما لم تر إلا أبو بكر ، وأخذ الله تعالى يبصرها على نبيه — ﷺ — فقالت : يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجذته لضربت بهذا الفهر فاه .

وعن عمر رضي الله عنه — تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قفل رسول الله — ﷺ — فجئنا منزلة ، فسمينا له ، فافتتح وقرأ

﴿ الْحَاقَةُ مَا الْحَاقَةُ ﴾ (٧)

إلى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (٨)

(١) أم جميل : زوج أبي هب .

(٢) شجر الشوك .

(٣) أي وهذا الشوك كان حاداً مؤلماً كأنه الجمر .

(٤) أي كان — عليه السلام — يمشي عليها وكتأها كثيب من الرمل فقد غمسكه .

(٥) المسد : ١ .

(٦) الفهر : حجر ملء الكف .

(٧) الحاقة : ١ .

(٨) الحاقة : ٨ .

فضرب أبو جهم على عضد عمر ، وقال : أئْجُ . وفرا
هارين فكانت من مقدمات إسلام عمر — رضي الله عنه — .

ومنه العبرة المشهورة ، والكافية التامة ، عندما أخافته قريش ،
وأجمعت على قتلها ، وبيتها ، فخرج عليهم من بيته ، فقام على
رعيتهم وقد ضرب الله — تعالى — على أبصارهم ، وذر التراب
على رعيتهم ، وخلص منهم ، وحمى بهم عن رؤيتهم في الغار ، بما هيأ
الله له من الآيات ، ومن العنكبوت الذي نسج عليه ، ووقفت
حمامتان على فم الغار ، فقالت قريش : لو كان فيه أحد لما كانت
هناك الحمام .

وقصته من سراقة بن مالك حين الهجرة ، وقد جعلت قريش فيه
وفي أبي بكر الجعائلي^(١) ، فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا
عليه النبي — ﷺ ، فساخت^(٢) قوائم فرسه فخرّ عنها ، واستقسم
بالأزلام ، فخرج له ما يكره ، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة
النبي — ﷺ — وهو لا يلتفت وأبو بكر يلتفت ، وقال للنبي — ﷺ
^{عليه السلام} : أَتَيْنَا^(٣) . فقال : ^{عليه السلام} (٤) .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

فساحت الفرس

ثانية إلى ركبتيها ، وخرّ عنها فرجها فنهضت ولقوائمها مثل
الدخان ، فناداهم بالأمان ، فكتب له النبي — ﷺ — أمانا .

(١) جمع جماله وهي الأجر مقابل عمل .

(٢) ساحت : غاصت في الرمل .

(٣) هونها وأحيط بها .

(٤) التوبة ٤٠ .

وفي خبر آخر أن راعياً عرف خبرهما فخرج يشتد يعلم قريشاً^(١)، فلما ورد مكة ضرب على قلبه ، فما يدرى ما يصنع ، وأنسى ما خرج له ، حتى رجع إلى موضعه .

وجاءه أبو جهل بصخرة وهو ساجد ، وقريش ينظرون ليطرحها عليه ، فلزقت بيده ، وبيست يداه إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقري إلى خلفه ، ثم سأله: أَنْ يَدْعُوكَ لِفَعْلَةً فانطلقت يداه .

وكان قد تواعد مع قريش بذلك وحلف لئن رآه ليدفعته^(٢) ، فلما حدث له ما ححدث ، سأله عن شأنه فذكر أنه عرض لي فعل ما رأيت مثله فقط هم بي أَنْ يأكلنـي ، فقال النبي - ﷺ - ذاك جريـلـ لو دـنا لـأخـذهـ .

ومن ذلك ما حدث يوم خرج عليه السلام إلى بنى قريظة في أصحابـهـ ، فجلس إلى جدار بعض آطامـهمـ^(٣) ، فانبعث عمرو بن جحـاشـ أحد اليهود ليطرح عليه رجـىـ ، فقام النـبـيـ - ﷺ - فانصرف إلى المدينة وأعلمـهمـ بقصـتهمـ .

وعن أبي هريرة أن أبا جهل وعد قريشاً لأن رأى محمدـاـ يصلـيـ ليـطـأنـ رقبـتهـ ، فلما صـلـيـ النـبـيـ - ﷺ - أعلمـوهـ فأـقـبـلـ ، فـلـمـاـ قـرـبـ منهـ ولـيـ هـارـبـاـ نـاكـصـاـ عـلـىـ عـقـيـبـهـ مـتـقـيـاـ بـيـدـيهـ . فـسـئـلـ فـقـالـ : لـمـاـ دـنـوـتـ منهـ أـشـرـفـتـ عـلـىـ خـنـدـقـ مـمـلـوـءـ نـارـاـ كـدـتـ أـهـوـيـ فـيـهـ ، وـأـبـصـرـتـ هـوـلـاـ عـظـيـمـاـ ، وـخـفـقـ أـجـنـحةـ قـدـ مـلـأـتـ الـأـرـضـ . فـقـالـ ﷺ : «ـ تـلـكـ

(١) أـيـ : يـسـرـ السـيرـ بـهـةـ حـتـىـ يـنـالـ الجـمـالـةـ .

(٢) أـيـ : لـيـقـضـيـنـ عـلـيـهـ بـدـفعـ الحـجـرـ عـلـيـهـ .

(٣) آـطـامـ : جـمـعـ أـطـمـ وـهـوـ الـحـصـنـ .

الملائكة ، لو دنا لاختطفته عضوا عضوا » ثم أنزل على النبي ﷺ
ومن وفدا عوجه له : «
إلى آخر السورة .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾

ويروى أن شيبة بن عثمان الحججي أدركه يوم حنين — وكان حمزة
لقيش قد قتل أباه وعمه — فقال : اليوم أدرك ثارى من محمد ، فلما
أختلط الناس أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليصبه عليه . قال : فلما
دنوت منه ارتفع إلى شُوااظ^(١) من نار أسرع من البرق ، فوليت
هاربا ، وأحسَّ بـ النبي — ﷺ — فدعاني فوضع يده على
صدرى ، وهو أبغض الخلق إلى ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق
إلى ، وقال : « اذن فقاتل » فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه
بنفسي ، ولو لقيت أبى تلك الساعة لاقت به دونه .

وعن فضاله بن عمرو قال : أردت قتل النبي — ﷺ — عام
الفتح ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه قال : أفضالة ؟
قلت : نعم . قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قلت : لا شيء .
فضحكت واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى فسكن قلبي ، فوالله
ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه .

(١) العلق ٧

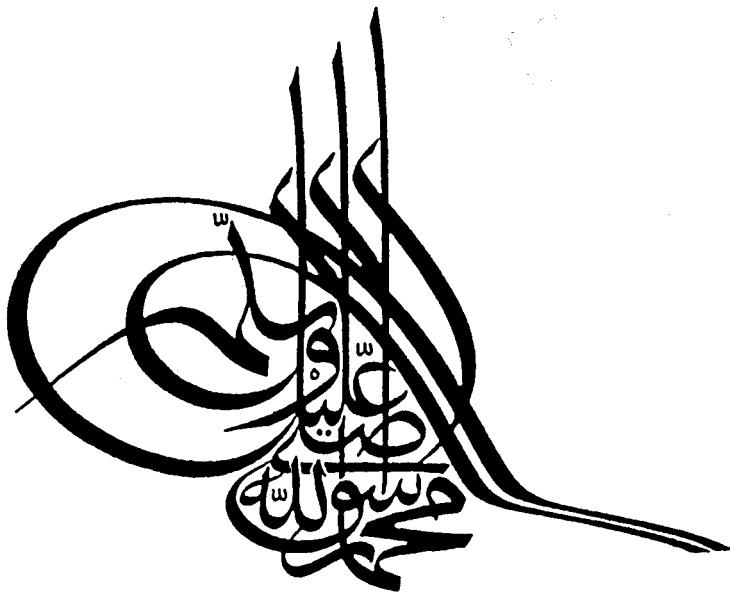
(٢) لمب .

لهم
أ

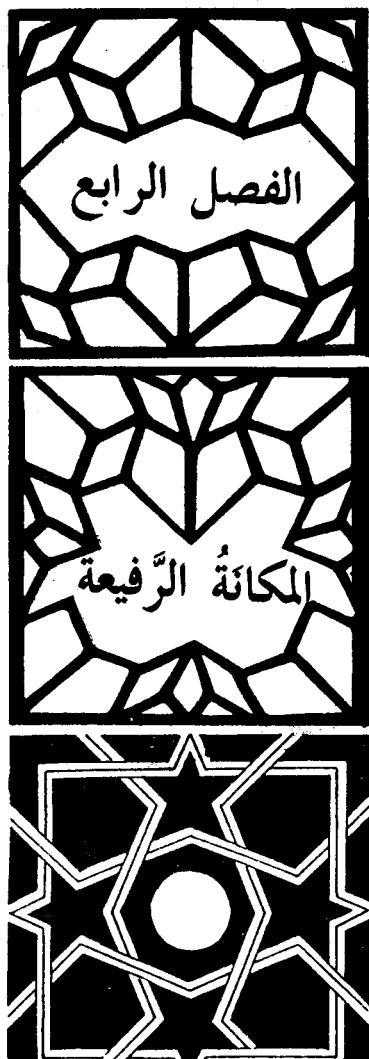
لما
لم
على
لقد
فيه

لام
و
للله

ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيلي ، وأربد بن قيس حين
وفدا على النبي - ﷺ - وكان عامر قال له : « أنا أشغل عنك
وجه محمد فاضر به أنت » فلم يره فعل شيئا . فلما كلمه في ذلك قال
له : « والله ما هممت أن أضر به إلا وجدتك بيني وبينه ، فأضر بك ؟
ومن عصمه له تعالى أن كثيرا من اليهود والكهنة أنذروا به
لقريش ، وأخبروهم بسيطرته عليهم ، وحضورهم على قتله ، فعصمه
الله تعالى حتى بلغ فيه أمره .
ومن ذلك نصره بالرعب مسيرة شهر كما قال ﷺ .



العنوان
أ: العد
باء شاء
التفسير
إلا إله
ذلك جسم
وا من مع
فاطمية
والخط و
يهمز غيبة
— (١)



اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده ، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته ، وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لوسائل ، كما حكى عن سنته في بعض الأنبياء ، وذكره بعض أهل التفسير في قوله : (١)

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ

إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَأَيٍ حِجَابٌ أَوْ يُرِسَلَ رَسُولًا فَيُوْحَىٰ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ
إِنَّهُ عَلَىٰ حِكْمَةٍ (٢)

وحاizer أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه ، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر ، كالملائكة مع الأنبياء ، أو من جنسهم ك الأنبياء مع الأئم ، ولا مانع لهذا من دليل العقل .

وإذا جاز هذا ولم يستحل ، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم ، وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به ، لأن المعجزة مع التحدى من النبي - عليه السلام - قائم مقام قول الله « صدّق عبدى فأطّلّعوه واتّبعوه » ، وشاهد على صدقه فيما يقوله ، وهذا كاف ، والتطويل فيه خارج عن الغرض .

والنبوة : في لغة من همز مأخوذه من النبأ وهو الخبر ، وقد لا يهمز على هذا التأويل تسهيلًا ، والمعنى : أن الله تعالى أطلعه على غيبه ، وأعلمه أنه نبيه ، فيكوننبيًّا .

(١) الشورى : ٥١ .

« مُتَبَا » فعيل بمعنى مفعول ، أو يكون مُخْبِرًا عما بعثه الله تعالى به ، ومنها أطلعه الله عليه : فعيل بمعنى فاعل .

ويكون عند من لم يهزه من النبوة ، وهو ما ارتفع من الأرض ، ومعناه أن له رتبة شريفة ، ومكانة نبوية عند مولاه منيفة^(١) . فالوصفان في حقه مُتَلْفَان .

· ٣ ·

وأما الرسول فهو المُرْسَل ، ولم يأت فعول بمعنى مُفْعَل في اللغة إلا نادرا ، وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه ، واشتقاقه من التابع ، ومنه قولهم : جاء الناس أرسلا ، إذا تبع بعضهمبعضا ، فكأنه لِزِمْ تكرير التبليغ ، أو لِزِمْتَ الْأَمَّةَ اتباعه . واختلف العلماء : هل النبي والرسول بمعنى أو بمعنيين :

١ — فقيل هما سواء وأصله من الأنبياء وهو الإعلام ، واستدلوا بقوله^{*} تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾^(٢)

فقد أثبت هما معا الإرسال ، قال : ولا يكون النبي إلا رسولا ، ولا الرسول إلا نبيا .

٢ — وقيل : هما مفترقان من وجه : إذ اجتمعوا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب ، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها ، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول ، وهو

(١) منيفة : عالية .

(٢) الحج : ٥٢ .

الأمر بالإنذار والإعلام ، وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الأسمين ، ولو كانا شيئاً واحداً لما حسُن تكرارهما في الكلام البلجيق .

قالوا والمعنى : وما أرسلنا من رسول إلى أمة ، أو نبى وليس برسول إلى أحد .

٣ — وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول قد جاء بشرع مبتدأ ، ومن لم يأت به نبى غير رسول ، وإن أمر بالإبلاغ والإنذار .
والصحيح والذى عليه الجمّاء الغفير^(١) : أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ، وأول الرسل آدم ، وآخرهم محمد عليه السلام .

★★★

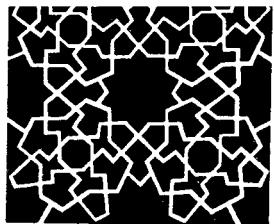
وأما الوحي : فأصله الإسراع ، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه يعجل سبي وحيا ، وسميت أنواع الإلهامات وحيا تشبيها بالوحى إلى النبي ، وسمى الخط وحيا لسرعة حركة يد كاتبه . ووَحْيٌ
ال حاجب واللحظ : سرعة إشارتهما : ومنه قوله تعالى :

فَأَوْحِنَّا إِلَيْهِمْ أَنْ سَيُّحَا مُبَكِّرَةً وَعِشْبَأً (٢)

أى لوماً ورمزاً ، وقيل كتب ، ومنه
قُوْلُمْ الْوَحَا الْوَحَا أى : السرعة السرعة .

(١) الجمّاء الغير : أى الكثرة الكثيرة .

(٢) مريم : ١١ .



يَهُونَ
فَالْمُؤْمِنُ
جَاءَهُ
بِأَوْلَى
أَدَمَ
وَيَتَحَرَّ
وَتَرَكَ
عَلَى
و
نَهَايَةِ
ثُمَّ
مَا يَهُ
وَرَأْتَهُ
فَإِنَّ

وقيل أصل الوحي السر والإخفاء ، ومنه سمى الإلهام وحيا .
ومنه قوله تعالى :

﴿أَوَ إِنَّ الشَّيْطَنَ لَيُبُوْحُونَ إِلَيْهِ أُولَئِكَ إِلَيْهِمْ﴾ (١)

ومنه قوله :

﴿أَوَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَمِ مُوسَى﴾ (٢)

أى ألقى في قلبه . وقد قيل ذلك في قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ
إِلَّا وَجِئَ أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ
إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ﴾ (٣)

أى ما يلقى في قلبه دون واسطه .

(١) الأنعام من الآية : ١٢١ .

(٢) القصص : ٧ .

(٣) الشورى : ٥١ .

بَنِينَ يَدِي الْقُرْآنِ :

قال تعالى : **لَقَدْ**
**جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (١٢٨) (١)

أعلم الله الناس أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه ،
ويتحققون مكانه ، ويعلمون صدقه وأمانته ، فلا يتهمونه بالكذب ،
وترك الصحية لهم لكونه منهم ، وأنه لم تكن قبيلة في العرب إلا ولها
على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة .

والنبي من أشرفهم وأرفعهم ، وأفضلهم على قراءة الفتح ، وهذه
نهاية المدح .

ثم وصفه تعالى بحرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم ، وشدة
ما يعنفهم (٢) ، ويضرّ بهم في دنياهم وأخراهم ، وعزته (٣) عليه ،
ورأفتة ورحمته بمؤمنهم .

قال بعضهم : أعطاه اسمين من أسمائه : رعوف رحيم . وقال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلنَّعَمِينَ (١٢٩) (٤)

(١) التوبة ١٢٨ ، وقرأ بعضهم من أنفسكم (فتح الفاء) وقراءة الجمهور بالضم .

(٢) يشق عليهم .

(٣) مشقته .

(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

وقد سماه الله تعالى في القرآن — في غير هذا الموضع — نورا
وسراجاً منيراً ، فقال تعالى : (١)

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَّكَتَبَ مِينٌ ﴾

وقال تعالى : (٢)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَّمُبَشِّرًا وَّنَذِيرًا ﴾

﴿ وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

ومن هذا قوله تعالى : (٣)

﴿ أَلمْ نَسْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

إلى آخر

. السورة ، وشرح وسع ، والمراد بالصدر هنا القلب . ومن الأقوال
الواردة في ذلك للسلف الصالح :

— شرحه بنور الإسلام .

— ملأه حكماً وعلماً .

— لم يظهر قلبك حتى لا يقبل الوسواس :

(١) المائدة : ١٥ .

(٢) الأحزاب : ٤٦ .

(٣) الانشراح : ١ .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهِيرَكَ ﴿ ١٠ ﴾

- ما سلف من ذنبك — يعني قبل النبوة .
- أراد تقل أيام الجاهلية .
- أراد ما أثقل ظهره من الرسالة حتى بلغها .
- عصمناك ، ولو لا ذلك لأثقلت الذنوب ظهرك .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾

- قيل « بالنبوه »
- وقيل : إذا ذكرت ذكرت معى في قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
- وقيل : في الأذان .

★★★

ويقول تعالى :

﴿ يَتَأَلَّمُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾
وَدِعْيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿ ١٢ ﴾

(١) الأشراح : ٣ .

(٢) الأشراح : ٤ .

(٣) الأحزاب : ٤٦ ، ٤٥ .

جمع الله — سبحانه وتعالى للنبي — عليه السلام — في هاتين الآيتين ضربا من رتب الأثرة^(١) :

— فجعله شاهدا على أمنه لنفسه بإبلاغهم الرسالة ، وهي من خصائصه — صلوات الله عليه — .

— ومبشرا لأهل طاعته .

— ونذيرا لأهل معصيته .

— وداعيا إلى توحيده وعبادته .

— وسراجا منيرا يهتدى به للحق .

★★★

ومن جاء من خطاب الله إياه ، وورد مورد الملاطفة والمبرة قوله تعالى :^(٢)

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَا أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾

وفي تفسير ذلك جاء عن السلف :

— هذا افتتاح كلام منزلة أصلاحك الله ، وأعزك الله .

— أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب .

— المعنى : عافاك الله يا سليم القلب ، لم أذنت لهم ؟

ولو بدأ القول : لم أذنت لهم لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام ؛ لكن الله سبحانه وتعالى أخبره بالعفو حتى سكن قلبه .

(١) الأثرة (بضم فسكون) : الكرامة .

(٢) التوبية : ٤٣ .

ثم قال « لم أذنت لهم ؟ » بالتلخلف حتى يتبيّن لك الصادق في عذرها من الكاذب .

وفـ هـ ذـ اـ مـ عـظـيمـ مـنـزـلـتـهـ عـنـدـ اللهـ مـاـلاـ يـخـفـيـ عـلـىـ ذـيـ لـبـ ،ـ وـمـنـ إـكـرـامـهـ إـيـاهـ ،ـ وـبـرـهـ بـهـ مـاـ يـنـقـطـعـ دـوـنـ مـعـرـفـةـ غـايـتـهـ نـيـاطـ الـقـلـبـ .

وقال تعالى :

﴿ لَعْمَرُكَ إِنَّهُمْ لَنِي سَكَنَرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٦) (١)

اتفق أهل

التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —

و معناه : وبقائك يا محمد .

وقيل : وعيشك .

وقيل : وحياتك .

وهـذـهـ نـهـاـيـةـ التـعـظـيمـ ،ـ وـغـايـةـ الـبـرـ وـالـتـشـريـفـ .

قال ابن عباس « ما خلق الله ، وما ذرأ ، وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وما سمعت الله تعالى — أقسم بحياة أحد غيره .

(١) الحجر : ٧٢

—
كان في
عليه .

وقال تعالى : (١)

﴿ يَسْ ﴿ وَأَنْقُرْءَ إِنَّ الْحَكِيمٌ ﴾)

— الآيات ومن أقوال المفسرين في ذلك .

— روى عن النبي (٢) عليه السلام أنه قال « لى عند ربى عشرة أسماء » ذكر منها أن « طه » و « يس » اسمان له — .

— وقيل : أنه أراد : يا سيد « مخاطبة لنبيه — عليه السلام » .

— وقيل « يس » يا إنسان — أراد محمداً — عليه السلام .

— وقيل : هو قسم ، وهو من أسماء الله تعالى .

— وقيل معناه : يا محمد .

— وقيل يا رجل .

— وقيل : يا إنسان .

— ثم قال تعالى : (٣)

﴿ يَسْ ﴿ وَأَنْقُرْءَ إِنَّ الْحَكِيمٌ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾)

—
فتكلمه
—
السورا
وقا
وتعظيه
—
(١) الص

(١) يس : ٢ ، ١ .

(٢) أخرجه أبو نعيم ، وأiben مردوه من طريق أبي بخي التميمي ، وهو وضع ، عن سيف بن وهب وهو ضعيف عن أبي الطفيلي . اهـ شفاج ١ ص ٨٧ .

(٣) يس : ٣ ، ٢ .

— فإذا قدر أن « يس » من أسمائه — ﷺ — وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه .

— وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته ، والشهادة بهدایته ، أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه لمن المسلمين بوجهه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ، أى طريق لا اعوجاج فيه ، ولا عدول عن الحق .

قال بعضهم : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له .

وفيه من تعظيمه وتجنيده على تأويل من قال « إنه يا سيد » ما فيه . وقد قال — ﷺ — « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

★★★

قال تعالى : ﴿ وَالضَّحْنِ (١) وَأَتَيْلِ إِذَا سَجَنِ (٢) ﴾ (١)

— قيل : كان ترك النبي — ﷺ — قيام الليل لعذر نزل به فتكلمت امرأة في ذلك بكلام .

— وقيل : بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي ، فنزلت السورة .

وقد تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له ، وتنويه به ، وتعظيمه إياها ستة وجوه :

(١) الضحى : ١ ، ٢ .

الأول : القسم له عما أخبره من حاله بقوله تعالى : (١)

﴿ وَالضَّحْنِ (٢) وَأَتَيْلِ إِذَا سَجَنِ (٣) ﴾

أى ورب الضئحي ، وهذا من أعظم درجات التبرة .

الثاني : بيان مكانته عنده وحظوظه لديه بقوله تعالى : (٤)

﴿ مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ (٥) ﴾

أى ما تركك وما أبغضك وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك .

الثالث : قوله تعالى : (٦)

﴿ وَلَآخِرَةٌ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٧) ﴾

قيل : أى مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة

الدنيا

وقيل : أى ما أدخلت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما
أعطيتك في الدنيا .

الرابع : قوله تعالى : (٨)

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَصَنَ (٩) ﴾

(١) الضئحي : ٢٠١

(٢) الضئحي : ٣

(٣) لضئحي : ٤

(٤) الضئحي : ٥

ومنه

آية جامعة لوجوه الكراهة ، وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة .

وقيل : يرضيه بالفلج^(١) في الدنيا والثواب في الآخرة وقيل : يعطيه الحوض والشفاعة

الخامس : ما عَدَّ تعالى عليه من نعمه ، وقرره من آياته قبله في بقية السورة من هدايته إلى ما هداه له ، أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير ، ولا مال له ، فأغناه بما أتاها ، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى ، وبطبيعاً فحذب عليه عمه وآواه إليه .

وقيل : آواه إلى الله

وقيل : « يتيمًا » لا مثال لك فآواك إليه .

وقيل : المعنى : ألم يجدك فهدي بك ضالاً ، وأغنى بك عائلة ، وأوى بك يتيمًا ، ذكره بهذه المتن ، وأنه على المعلومات من التفاسير لم يحمله في حال صغره ، وعيته ، ويتيمه ، وقبل معرفته به ، ولا ودعا ، ولا قلاه ، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه .

السادس : أمره بإظهار نعمته عليه ، وشكر ما شرفه به بنشره ، وإشادة ذكره بقوله تعالى : ^(٢)

﴿ وَمَا يُنْعَمُ رَبِّكَ فَحَدَّثَ ﴾

فإن من شكر النعمة التحدث بها . وهذا خاص له وعام لامة .

(١) الفلج : الظفر والغوز .

(٢) الضحي ١١ :

و
ث
عَد :
ث
للتجم
وقال

آما آيات سورة النجم فقد اشتملت على إعلام الله تعالى بتزكية حملته — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وعصمتها من الآفات في مسراه .

فرى كى فؤاده ولسانه وجوارحه :

— زَكَى فؤاده بقوله تعالى : (١)

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾

— وزَكَى لسانه بقوله : (٢)

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾

— وزَكَى بصره بقوله : (٣)

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾

★★★

وقال تعالى : (٤)
﴿ تَ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

.. الآيات أقسم الله ..

تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه ، من تزييه المصطفى مما غمضته (٥)
الكفرة به ، وتکذیبهم له ، وآنسه وبسط أمله بقوله حسنا خطابه :

(١) النجم : ١١

(٢) النجم : ٣

(٣) النجم : ١٧

(٤) القلم : ١

(٥) عابره .

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(١)

وهذه نهاية المبرة في الخطابة ، وأعلى درجات الآداب في المحاورة .
ثم أعلمه بماله عنده من نعيم دائم ، وثواب غير منقطع لا يأخذه
عد ، ولا يمْنَ به عليه . فقال

﴿وَإِنَّ لَكَ لَا جُرَاحَةَ غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾^(٢)

ثم أثني عليه بما منحه من هباته ، وهداه إليه ، وأكَّد ذلك تتميما
للتحميد بحرف التأكيد ، فقال تعالى

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)

★★★

وقال تعالى

﴿طه﴾^(٤) ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْفُرْقَاءَ إِنَّ لِنَسْقَئِ﴾^(٥)

— قيل « طه » اسم من أسمائه — ﷺ —

— وقيل : هو اسم الله .

— وقيل معناه : يارجل .

— وقيل : يا إنسان .

(١) القلم : ٤ .

(٢) القلم : ٤ .

(٣) القلم : ٤ .

(٤) طه : ١ - ٤ .

قال — وقيل : هي حروف مقطعة لمعان .

له محمد — وقيل : أراد سبحانه — « يا طاهر ، يا هادي »^(١)

وقيا — وقيل : هو أمر من الوظء ، والهاء كناية عن الأرض . أي وقو — اعتمد على الأرض بقدميك ، ولا تتعب نفسك بالاعتداد على قدم واحدة . وهو قوله تعالى :^(٢)

﴿ طه ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُنَثَّقَ ﴾

وقد نزلت الآية فيما كان يتكلفه النبي — عليه السلام — من السهر والتعب وقيام الليل .

وقد روى أن رسول الله — عليه السلام — كان إذا قام صلى على رجل ، ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى « طه » يعني طأ الأرض يا محمد « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ، ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة .

★★★

وقال تعالى :^(٣) ﴿ هُوَ إِذَا أَخَذَ اللَّهَ مُبِينَ لَمَآءَاتَيْنُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَّصِدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لِتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِنَنْصُرَنَّهُ قَالَ أَفَرَأَتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَنَا قَالَ فَأَشَهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(١) واضح أن هذا التفسير يجعل كل حرف في طه أول حرف في الوصف .

(٢) آل عمران : ٨١ .

(٣) طه : ٢٠١ .

قال المفسرون : أخذ الله الميثاق بالوحى ، فلم يبعث نبيا إلا ذكر
له محددا وتفته ، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمن به .

وقيل : أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبيئوه من بعدهم .
وقوله « ثم جاءكم » الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لـ محمد —

وقال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — للنبي — محمد — :
بأى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك
آخر الأنبياء ، وذرك في أو لهم ، فقال :

﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيقَاتَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوْجٍ ﴾^(١)

بأى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ
من فضيلتك عنده ، أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك ،
وهم بين أطباقها يعذبون ، يقولون :

﴿ يَلْبَيَنَا أَطْعَنَا اللَّهَ وَأَطْعَنَا الْرَّسُولُ ﴾^(٢)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْدِيهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾^(٣)

أى ما كنت

بمكة ، فلما خرج النبي — محمد — من مكة ، وبقي فيها من بقى من
المؤمنين نزل قوله تعالى :

(١) الأحزاب : ٦٦ .

(٢) الأحزاب : ٦٦ .

(٣) الأنفال : ٣٣ .

وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١﴾ (١)

فَلِمَا هَاجَرَ الْمُؤْمِنُونَ نَزَّلَتْ :

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ
عَنِ الْمَسِجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئِكَ إِنْ أُولَئِكَ إِلَّا مُنَقُّونَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ (٢)

وهذا من أبين ما يظهر مكانته ودرأته (٣) العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم ، فلما حللت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم ، وغلبهم إياهم ، وحكم فيهم سيفهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم .

وفي الآية أيضا تأويلا آخر :

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
«أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَمَانِينِ لَأْمَتِي» : (٤)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣﴾

فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار .



(١) الأنفال : ٣٣ .

(٢) الأنفال : ٣٤ .

(٣) الدره : المفع .

(٤) الأنفال : ٣٣ .

ونحو منه قوله تعالى

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

قال رسول

الله - عليه السلام - « أنا أمان لأصحابي » قيل : من البدع .

وقيل : من الاختلاف والفتنة .

قال بعضهم : الرسول - عليه السلام - هو الأمان الأعظم ما عاش ،
وما دامت سنته باقية فهو باق ، فإذا أمتت سنته فانتظروا البلاء
والفتنة .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَسِّرْهَا ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢)

أبان الله تعالى فضل نبيه - عليه السلام - بصلاته عليه ، ثم بصلة
ملائكته ، وأمر عباده بالصلاحة والتسليم عليه ، وأول بعض العلماء
قوله - عليه السلام - « وجعلت قرة عيني في الصلاة » . على هذا أى في
صلاة الله تعالى على ، وملائكته ، وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيمة .

والصلاحة من الملائكة ومننا له دعاء ، ومن الله عز وجل رحمة .

وقال تعالى : ***

﴿ إِنَّا فَتَحَنَّكَ فَتَحَمَّلُنَا ... يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٣)

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

(٣) الفتح : (١ - ١٤) .

(١) الأنبياء : ١٠٦ .

تضمنت هذه الآيات من فضله ، والثناء عليه ، وكريم منزلته عند الله تعالى ، ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه . فابتداً جل جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره وغلبة على عدوه ، وعلو كلمته وشريعته ، وأنه مغفور له ، غير مؤاخذ بما كان وما يكون .

ثم قال تعالى :

﴿ وَيَتَمَّ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾^(١)

قيل : بخضوع من تكبر لك .

وقيل : بفتح مكة والطائف .

وقيل : يرفع ذكرك في الدنيا ، وينصرك ، ويغفر لك . فأعلمه بتام نعمته عليه . بخضوع متكبري عدوه له ، وفتح أهم البلاد عليه ، وأحبابها له ، ورفع ذكره ، وهدایته الصراط المستقيم الذي يبلغه الجنة والسعادة ونصره النصر العزيز ، ومنتها على أمة المؤمنين بالسکينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم ، وبشارتهم بمالهم عند ربهم بعد ، وفوزهم العظيم ، والعفو عنهم ، والستر لذنبهم ، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم جمع للنبي - ﷺ - في سورة الفتح نعم مختلفة .

- من الفتح المبين : وهو من أعلام^(٢) الإجابة .

- والمغفرة : وهي من أعلام الحبة .

- وتمام النعمة : وهي من أعلام الاختصاص .

- والهدایة : وهي من أعلام الولاية .

(١) الفتح : ٢ .

(٢) أعلام : علامات .

فالمغفرة تبرأة من العيوب .

وتمام النعمة بإبلاغ الدرجة الكاملة والمداية : وهي الدعوة إلى المشاهدة .

وقال بعضهم : من تمام نعمة الله عليه أن جعله حبيبه ، وأقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به إلى المخل الأعلى ، وحفظه في المراجح حتى مازاغ البصر وما طغى ، وبعثه إلى الأحمر والأسود ، وأحل له ولأمته الغنائم ، وجعله شفيعاً مشفعاً وسيداً ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركني التوحيد .

★★★

— ما قصه الله سبحانه وتعالى عنه في سوري « الإسراء »
والنجم » .

— عصمته من الناس بقوله تعالى : (١)

﴿ وَاللَّهُ يَعِصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

وقوله تعالى : (٢)

﴿ وَإِذْ يَمْكِرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْتُكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُخْرِجُوكُمْ وَيَمْكِرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ ﴾ (٣)

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) الأنفال : ٣٠ .

وقوله تعالى : (١)

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾

— وما دفعه الله عنه من أذى الكفار ، والأخذ على أبصارهم عند خروجهم عليه ، وذهولهم عن طلبه في الغار ، وما ظهر في ذلك من الآيات ، ونزول السكينة عليه ، وقصة سراقة بن مالك ، كما هو معروف في قصة الهجرة .

— وقوله تعالى : (٢)

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ أَلَّا بُتُّرْ ۝﴾

فقد أعلمته الله بما أعطاه . والكثير حوضه ، أو نهر في الجنة ، أو الخير الكثير ، أو الشفاعة ، أو المعجزات الكثيرة ، أو النبوة ، أو المعرفة .

ثم أجاب عنه عدوه ، ورد عليه قوله . فقال تعالى : (٣)

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ أَلَّا بُتُّرْ ۝﴾

أى عدوك وبغضنك . والأبتر : الحقير الذليل ، أو المفرد الوحيد الذي لا خير فيه .

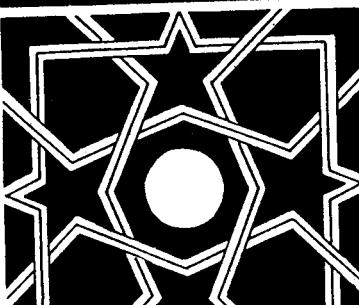
(١) التوراة : ٤٠ .

(٢) الكوثر : ١ - ٣ .

(٣) الكوثر : ٣ .

الفصل الخامس

حقيقة الاسراء



الخ
سبه
الأ
فيه
إذًا
لذك
ف
أ
وليس
—
(1)
(2)

اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراوه — عليه السلام — بروحه أو جسده ؟! : على ثلاثة مقالات :

— فذهب طائفة : إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي .

واستندوا في ذلك إلى الحجج الآتية :

١ — قوله تعالى : (١)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَرْءَيَا لَتَّى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾

٢ — ما حكوا عن عائشة — رضي الله عنها — ما فقدت جسد رسول الله — عليه السلام — .

٣ — قوله — عليه السلام — « بينا أنا نائم » .

٤ — قول أنس — رضي الله عنه — « وهو — أى النبي — نائم في المسجد الحرام . (وذكر قصة الإسراء) ثم قال في آخرها : فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام »

— وذهب معظم السلف وال المسلمين : إلى أنه إسراء بالجسد وفي القيمة .

وهذا هو الحق ، وهو قول أكثر المتأخرین من الفقهاء والمحدثین والتكلمين والمفسرين .

(1) الإسراء : ٦٠ .

— وقالت طائفة ثالثة : كان الإسراء بالجسد يقطة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح .

واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾^(١)

فجعل « إلى المسجد الأقصى » غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتداخ بتشريف النبي محمد — ﷺ — به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .

وقال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح .

والحق من هذا وال الصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها ، وعليه تدور الآية ، و صحيح الأخبار والاعتبار .

ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالات ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقطنه استحالات .

ولو كان مناما لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعده ، و قوله تعالى :

﴿ مَا زَاغَ الْبَصُرُ وَمَا طَغَى ﴾^(٢)

(١) الإسراء : ١ .

(٢) النجم : ١٦ .

ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذبوا فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم ، وافتنتوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته .

إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس في
رواية أنس ، أو في السماء — على ما روى غيره ، وذكر مجيء جبريل
له باليراق ، وخبر المعراج ، واستفتاح السماء ..

قال ابن عباس « هي رؤيا عين رأها — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ لَهُ سَلَامٌ — لا رؤيا منام ». .

وعن الحسن فيه « بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل ، فهمزني بعقبة ، فقمت فجلست ، فلم أر شيئاً فعدت لمضجعي - ذكر ذلك ثلاثاً - فقال في الثالثة « فأخذ بعضدي إلى باب المسجد ، فإذا بدابة .. وذكر البراق .

وَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ : مَا أَسْرَى بِرْسُولَ اللَّهِ — ﷺ — إِلَّا وَهُوَ فِي
نَبِيَّتِنِي تِلْكَ الْلَّيْلَةِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْفَجْرَ أَهْبَنَا^(١) رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — فَلَمَّا صَلَّى الصَّبَحَ وَصَلَّيْنَا . قَالَ
« يَا أُمَّ هَانِئٍ .. لَقَدْ صَلَّيْتَ مَعَكُمُ الْعَشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتَ بِهَا
الْوَادِيَ . ثُمَّ جَثَتْ بَيْتُ الْمَقْدَسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ الْغَدَاءَ
مَعَكُمُ الْآنَ كَمَا تَوْنَ .. »

وهذا يُبيّن في أنه بحسبه .

(١) أهبنا : أيقظنا .

وعن أبي بكر — رضي الله عنه — قال للنبي — عليه السلام — ليلة أسرى به .

« طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجده ». فأجابه « إن جبريل عليه السلام حلني إلى المسجد الأقصى ». وعن عمر — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — عليه السلام — « صليت ليلة أسرى بي في مقدم المسجد ، ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاثة .. » وذكر الحديث .

وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة فتحمل على ظاهرها .

★★★

إبطال حجج من قال إن الإسراء كان مناما :

١ — احتجوا بقوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْرُّءْمَ يَا أَلَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾^(١)

ونرد على ذلك بما يأتي :

(أ) قوله :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَمْرَى بِعَبْدِهِ لِيَلَامِنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾^(٢)

(١) الإسراء : ٥٩ .

(٢) الإسراء : ١ .

يرد هذا الزعم : لأنه لا يقال في النوم « أسرى » .

(ب) قوله : « فتنة للناس ». يؤيد أنها رؤيا عن ، وإسراء بشخص ، إذ ليس في الحُلم فتنة ، ولا يكذب به أحد ، لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباعدة .

(ج) على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية :

— فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قضية الحديبية ، وما وقع في نفوس الناس من ذلك .

— وقيل غير هذا .

٢ — وأما قولهم : إنه قد سماها في الحديث مناما ، وقوله في حديث آخر « بين الإمام واليقطان » وقوله أيضا « وهو نائم » وقوله : « ثم استيقظت » فكل ذلك لا حجة فيه :

(أ) إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم ، أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائما في القصة كلها إلا ما يدل عليه قوله : ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام فعل قوله : « استيقظت » بمعنى أصبحت ، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته ، ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله وإنما كان في بعضه ،

(ب) وقد يكون قوله « استيقظت وأنا في المسجد الحرام » لما كان غمراه من عجائب ما طالع من ملوك السموات والأرض وخارق باطنها من مشاهد الملأ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه

الكبيرى ، فلم يستفق ، ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد
الحرام .

(ج) ووجه ثالث : أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى
لفظه ، ولكن أسرى بحسده وقلبه حاضر ، ورؤيا الأنبياء حق ، تناهى
أعينهم ولا تناهى قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا قال : تغميض
عينيه لثلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى .. ولا يصح هذا
أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت في هذا الإسراء
حالات .

(د) ووجه رابع : وهو أن يعبر بالنوم هنا عن هيئة النائم من
الاضطجاع ، ويقوية قوله في روایة عبد الله بن حميد عن همام :
« بينما أنا نائم » — وربما قال — « مضجع » وقوله في الرواية
الأخرى « بين النائم واليقطان » فيكون سمي هيئة بالنوم لـما كانت
هيئة النائم غالبا .

(هـ) وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم ، وذكر شق
البطن ، ودنو الرقب عز وجل الواقعه في هذا الحديث ، إنما هي من
رواية شريك عن أنس ، فهي منكرة^(١) من روایته . اذ شق البطن في
الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره — عليه السلام — ولأنه قال في
الحديث « قبل أن يبعث » والإسراء بالإجماع كان بعد المبعث . فهذا
كله يوهن ما وقع في روایة أنس ، مع أن أنسا قد بين من غير طريق
أنه إنما رواه عن غيره ، وأنه لم يسمعه من النبي عليه السلام : فقال مرة

(١) منكرة : شاذة . وشريك بن أبي غر الرواية طعن فيه بعضهم وقالوا إنه غير ثابت .

— ٤ —
« عن مالك بن صعصعة ». وفي كتاب مسلم « لعله عن مالك بن
 Crususcha » على الشك . وقال مرة « كان أبو ذر يحدث » .

٣ — وأما قول عائشة « ما فقدت جسده » فعائشة لم تحدث به
 عن

مشاهدة ، لأنها لم تكن زوج النبي — ﷺ — ولا في
 سن من يضبط ، ولعلها لم تكن ولدت بعد ، على الخلاف في
 الإسراء متى كان :

— وقد قيل : كان الإسراء خمس قبل الهجرة .

— وقيل قبل الهجرة بعام .

والحججة لذلك تطول ليست من غرضنا ، فإذا لم تشاهد ذلك
 عائشة دلّ على أنها حدثت بذلك عن غيرها ، فلهم يرجح خبرها على
 خبر غيرها .

وغيرها يقول خلافه مما وقع نصا في حديث أم هانئ وغيره ،
 وأيضاً فليس حديث عائشة — رضي الله عنها — بالثابت ،
 والأحاديث الأخرى أثبتت ، لسنا نعني حديث أم هانئ ، وما ذكرت
 فيه خديجة .

وأيضاً فقد روى في حديث عائشة « ما نَمَدْتُ » ولم يدخل بها
 النبي — ﷺ — إلا بالمدينة ، وكل هذا يوهنه .

بل والذى يدل عليه صحيح قوله أنه بجسده لإنكارها أن تكون
 رؤيا لربه رؤيا عين ، ولو كانت عندها مناما لم تنكره .

فقد
 فقد
 ووحى
 قلنا

فقد أ

وقا

أى لم

وقى

أما

— ١ —

(١) النج
(٢) النج

٤ — فإن قيل : فقد قال تعالى

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَرَأَى ﴾ (١)

فقد جعل «ما رأه» للقلب ، وهذا يدل على أنه رؤيا نوم ووحي ، لا مشاهدة عين وحس .

قلنا : يقابله قوله تعالى

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٢)

فقد أضاف الأمر للبصر .

وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى « ما كذب الفؤاد ما رأى »
أى لم يوهِّم القلب العين غير الحقيقة ، بل صدق رؤيتها .
وقيل : ما أنكر قلبه ما رأته عيناه .

أما رؤيته لربه جل وعز ، فاختطف السلف فيها :

١ — فأنكرته عائشة — رضي الله عنها — عن مسروق أنه قال :
قلت لعائشة — رضي الله عنها — يا أم المؤمنين : هل رأى
محمد ربه ؟

(١) النجم : ١١ .

(٢) النجم : ١٧ .

قالت : لقد قَفَ شعرى^(١) ما قُلْتُ ، ثلاث من حديثك بهن فقد
كذب : من حديثك أن مهدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت
﴿ لَا تُنَدِّرِكَهُ أَلَا بَصَرُ وَهُوَ يُدِرِكُ أَلَا بَصَرُ وَهُوَ الْطِيفُ أَنْخَيْرُ ﴾
وعلى هذا الرأى كثير من السلف .

٢ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رأاه بعينه . كما روى عنه قوله آخران وهو : أنه
رأاه بقلبه ، وأنه رأاه بفؤاده مرتين .

ولكن الأول هو الأشهر عنه . وقال : إن الله تعالى اختص موسى
بالكلام ، وإبراهيم بالخلة^(٢) ، ومحمدًا بالرؤيا . وحجته قوله

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾
﴿ أَفَتَمْرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾
﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى ﴾ ^(٣)

وحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال « أنا أقول بحديث ابن عباس
« بعينيه رأاه رأاه ... » .

وعن ابن عطاء في قوله تعالى^(٤) : **﴿ إِنَّمَا تُشَرِّحُ لَكَ صَدْرَكَ ﴾**

قال : شرح صدره للرؤيا ، وشرح صدر موسى للكلام .

(١) قَفَ شعرى : كناية عن شدة فزعها بما قال .

(٢) الأنعام : ١٠٣ .

(٣) والخليل هو الصادق وهو من أصفى المؤدة والحب .

(٤) النجم : ١١ - ١٣ .

والحق الذى لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا ،
وليس في العقل ما يحيلها :

والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى — عليه السلام — لها
ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله ، وما لا يجوز عليه ، بل لم يسأل
إلا جائز غير مستحيل .

ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لا يعلمه إلا من علمه
الله .

فقال له تعالى : (١)

﴿ لَنْ تَرَنِي ﴾

أى لن تطبق ، ولا تتحمل رؤيتي ، ثم
ضرب له مثلاً ما هو أقوى من نبى موسى وأثبت وهو الجبل .

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا بل فيه جوازها على
الجملة .

وليس من الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها ، إذ كل
موجود فرؤيته جائزه غير مستحيلة .

ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى : (٢)

﴿ لَا تُنَذِّرُ كُمْ أَلَا بَصَرُ وَهُوَ يَدْرِكُ أَلَا بَصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ أَنْخَبِرُ (٣) ﴾

(١) الأعراف من الآية : ١٤٣ .

(٢) الأنعام : ١٠٣ .

لاختلاف التأويلات في الآية ، وإذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة . وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية ، وعدم استحالتها على الجملة .

- وقد قيل : لا تدركه أبصار الكفار .

- وقيل : لا تدركه الأبصار : لا تحيط به .

- وقيل : لا تدركه الأ بصار ، وإنما يدركه المتصرون . وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها .

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى : (١)

﴿ لَنْ تَرَنِي ﴾

وقوله (٢)

﴿ تَبَتُ إِلَيْكَ ﴾

لما قدمناه ، ولأنها ليست على العموم ، ولأن من قال : معناها لن تراني في الدنيا ، إنما هو تأويل .

وأيضاً فليس فيه نص الامتناع .

وإنما جاءت في حق موسى .

وحيث تتطرق التأويلات ، وتتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل . وقوله « تبت إليك » أي من سؤالي ما لم تقدره لي .

(١) (٢) .. لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخرمومسي صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك إن تبت إليك وإنما أول المؤمنين . (٢) الأعراف : ١٤٣ .

ز

وقد قال أبو بكر الهمزلي في قوله تعالى . « لِنْ تَرَافِي » أى ليس
لبشر أن يطيق أن ينظر إلى في الدنيا ، وأنه من نظر إلى مات .

وقد رأيت بعض السلف والمتاخرين ما معناه إن رؤيته تعالى في
الدنيا ممتنعة ، لضعف تركيب أهل الدنيا وقوائم ، وكونها متغيرة
عرضًا للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية .

فإذا كان في الآخرة ، وركبوا تركيبا آخر ، ورزقوا قوى ثابتة
باقية ، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم ، قووا بها على الرؤية .

وقد رأيت نحو هذا لما الله بن أنس - رحمه الله - قال : « لَمْ يُرِيْ
فِي الدُّنْيَا لَأْنَهُ بَاقٌ ، وَلَا يُرِيْ الْبَاقِي بِالْفَانِي ، فَإِذَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ ،
وَرَزَقُوا أَبْصَارًا بَاقِيَةً رَوِيَّ الْبَاقِي بِالْبَاقِي .

وهذا كلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من
حيث ضعف القدرة . فإذا قوى الله من شاء من عباده ، وأقدره على
حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه . وقد ذكرت أقوال كثيرة في قوة
بصر موسى ومحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية مُنحَّاهَا
لإدراك ما أدركاه ، ورؤيه ما رأياه .

ـ يـ

وذكر بعضهم ^(١) في أثناء أجوبته عن الآيتين ^(٢) : ما معناه : أن
موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صعقا . وأن الجبل رأى ربه
فضار دَكَّا بإدراكه خلقه الله له .

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ .

(٢) (لا تدركه الأ بصار ..) و (.. ولن ترافي) .

وقد قال أبو بكر الهزلي في قوله تعالى . « لِنْ تَرَافِي » أى ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلى في الدنيا ، وأنه من نظر إلى مات .

وقد رأيت بعض السلف والمؤاخرين ما معناه إن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة ، لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة عرضاً للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية .

فإذا كان في الآخرة ، وركبوا تركيبا آخر ، ورزقوا قوى ثابتة باقية ، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم ، قووا بها على الرؤية .

وقد رأيت نحو هذا مالك بن أنس - رحمه الله - قال : « لَمْ يُرِيْ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقٍ ، وَلَا يُرِيْ الْبَاقِ بِالْفَانِي ، فَإِذَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ ، وَرَزَقُوا أَبْصَارًا بَاقِيَةً رَوِيَ الْبَاقِ بِالْبَاقِي .

وهذا كلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحاللة إلا من حيث ضعف القدرة . فإذا قوى الله من شاء من عباده ، وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتتنع في حقه . وقد ذكرت أقوال كثيرة في قوة بصر موسى ومحمد - ﷺ - ونفوذ إدراكمهما بقوة إلهية مُنْحَاهَا لإدراك ما أدركاه ، ورؤيه ما رأياه .

وذكر بعضهم ^(١) في أثناء أجوبته عن الآيتين ^(٢) : ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صعقا . وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك خلقه الله له .

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ .

(٢) (لا تدركه الأبصار ..) و (.. ولن تراني) .

واستتبط ذلك - والله أعلم - من قوله : ^(١)

﴿ وَلَنَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ أَسْتَقَرَ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي ﴾

ثم قال :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّا وَخَرْمُوسَيْ صَعِيقَةً ﴾

وتجليه للجبيل هو ظهوره له حتى رأه - على هذا القول .

وقال جعفر بن محمد : شغله بالجبيل حتى تحلى ، ولو لا ذلك لمات صعقا بلا إفاقة .

وقوله هذا : يدل على أن موسى رأه . وقد وقع لبعض المفسرين في الجبل أنه رأه . وبرؤيه الجبل له استدل من قال برؤيه محمد نبينا له إذ جعله دليلا على الجواز .

ولامرية في الجواز . إذ ليس في الآيات نص في المنع .

وأما وجوبه لنبينا - عليه السلام - . والقول بأنه رأه بعينه ، فليس فيه قاطع أيضا ولا نص . إذا المعمول فيه على آياتي النجم ، والتنازع فيما مأثور ، والاحتمال لهما ممكنا ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي - عليه السلام - بذلك . وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده وهو لم يستدنه إلى النبي - عليه السلام - .

(١) الأعراف : ١٤٣ .

والأحاديث الأخرى في ذلك تحتمل التأويل ، وبعضها مضطرب
إسناد ومتنا . وليس يمكن الاحتجاج . بوحد منها على صحة
الرؤية .

والله تعالى قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب ،
فإن ورد حديث نص بين في الباب اعتقد ووجب المصير إليه ، إذ لا
استحالة فيه ، ولا مانع قطعي يرده ، والله الموفق للصواب .

مناجاته لله تعالى

وأما ما ورد في قصة الإسراء من مناجاته لله تعالى ، وكلامه معه
بقوله : (١)

﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِ عَبْدِهِ مَا أُوحِنَ (٢) ﴾

إلى ما تضمنته الأحاديث :

فأكثر المفسرين على أن الموحى هو الله — عز وجل — إلى
جبريل ، وجبريل إلى محمد — عليهما السلام — إلا شذوذًا منهم^(٣) .

فذهب بعضهم إلى أنه أوحى إليه بلا واسطة ، وأن محمدا — عليه
السلام — كلام ربه في الإسراء .

ونقل عن ابن عباس في قصة الإسراء عنه — عليهما السلام — في قوله تعالى^(٤)

﴿ هُمْ دَنَّافَتَلَكَ (٥) ﴾

(١) النجم ١٠

(٢) إلا جماعة شذت عن الكلفة . وشذوذ هنا جمع شاذ .

(٣) النجم ٨

قال « فارقني جبريل ، فانقطعت الأصوات عنى ،
فسمعت كلام ربي ، وهو يقول : ليهدا روعك يا محمد . اذن
اذن » ^(١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ بِرِسْلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ
إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ﴾ ^(٢)

فقالوا هي ثلاثة أقسام :

- ١ - من وراء حجاب لتكميل موسى .
- ٢ - بإرسال الملائكة ، كحال جميع الأنبياء ، وأكثر أحوال
نبينا - ﷺ - .
- ٣ - والثالث قوله « إلا وحيا » ، ولم يبق من تقسيم صور الكلام
إلا المشافهة مع المشاهدة .

وقيل : « الوحي هنا هو ما يلقيه في قلب النبي دون
واسطة » .

وكلام الله تعالى لحمد - ﷺ - ومن اختصه من أنبيائه جائز
غير ممتنع عقلا ، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه . فإن صح في ذلك
خبر اعتمد عليه .

(١) اذن : اقترب .

(٢) الشوري ٥١ .

وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به ، نصًّ ذلك في الكتاب ، وأكده بالمصدر (تكليمًا) دلالة على الحقيقة ، ورفع مكانه - على ما ورد في حديث الإسراء - في السماء السابعة بسبب كلامه ، ورفع محمدًا فوق هذا كله ، حتى بلغ مستوى ، وسمع صريف الأقلام .

فكيف يستحيل في حق هذا ، أو يبعد سماع الكلام ، فسبحان من خص من شاء بما شاء ، وجعل بعضهم فوق بعض درجات .

الدُّنْوُ والقُرْبُ :

وأما ما ورد في حديث الإسراء ، وظاهر الآية من الدُّنْوُ والقُرْبُ من قوله تعالى :^(١)

﴿ تُمَدَّدَنَا فَتَدَلَّى ﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدَنَى ﴾

فأكثر المفسرين : أن الدُّنْوُ والتَّدَلَّى منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام . أو مختص بأحددهما من الآخر ، أو من سدرة المنتهى .

— قال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلى من ربه .

— وقيل معنى « دنا » قرب ، و « تدلّى » زاد في القرب .

— وقيل : هما بمعنى واحد أى قرب .

(١) التجم : ٨ ، ٩ .

— وَحُكْمِي عَنْ أَبْنَى عَبَّاسَ قَوْلَهُ : هُوَ الرَّبُّ دَنَا مِنْ مُحَمَّدٍ فَتَدَلَّى
إِلَيْهِ .. أَىْ أَمْرُهُ وَحُكْمُهُ .

— وَقَوْلَهُ أَيْضًا : هُوَ مَقْدُومٌ وَمُؤْخَرٌ : تَدَلَّى الرَّفْرَفُ^(١) لِحَمْدٍ —
عَلَيْهِ اللَّهُ تَعَالَى — لِلَّيْلَةِ الْمَرْأَجِ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَ فَدَنَا مِنْ رَبِّهِ .

قال « فارقني جبريل ، وانقطعت عنى الأصوات ، وسمعت
كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ

— وَعَنْ أَنْسٍ فِي الصَّحِيفَةِ^(٢) « عَرَجَ بِي جَبَرِيلُ إِلَى سَدْرَهِ
الْمُنْتَهَى ، وَدَنَا الْجَبَارُ رَبُّ الْعَزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابُ قَوْسَيْنَ أَوْ
أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ بِمَا شَاءَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَوةً .. وَذَكَرَ
حَدِيثَ إِلَيْرَاءِ .

— وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَدْنَاهُ مِنْهُ رَبُّهُ حَتَّى كَانَ مِنْهُ كَفَابُ
قَوْسَيْنَ . وَالدُّنْوُ مِنَ اللَّهِ لَا حَدَّ لَهُ ، وَمِنَ الْعِبَادِ بِالْحَدِودِ .

وَقَالَ أَيْضًا : انْقَطَعَتِ الْكَيْفِيَّةُ عَنِ الدُّنْوِ ، أَلَا تَرَى كَيْفَ حَجَبَ
جَبَرِيلُ عَنْ دُنُوهِ ، وَدَنَا مُحَمَّدٌ إِلَى مَا أَوْدَعَ قَلْبَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ ،
فَتَدَلَّى بِسَكُونٍ قَلْبَهُ إِلَى مَا أَدْنَاهُ ، وَزَالَ عَنْ قَلْبِهِ الشُّكُوكُ وَالْأَرْتِيَابُ » .

أَعْلَمُ^(٣) أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ إِضَافَةِ الدُّنْوِ وَالْقَرْبِ هُنَا مِنَ اللَّهِ ، أَوْ إِلَى
اللهِ ، فَلَيْسَ بِدُنُو مَيْكَانٍ ، وَلَا قَرْبٌ مَدِىٌّ ، بَلْ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ جَعْفَرِ
ابْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ لَيْسَ بِدُنُو حَدٍّ ، وَإِنَّمَا دُنُو النَّبِيِّ — عَلَيْهِ اللَّهُ تَعَالَى
رَبِّهِ ، وَقَرْبَهُ مِنْهُ إِبَانَةُ عَظِيمٍ مَنْزِلَتِهِ ، وَشَرِيفٌ رَتْبَتِهِ ، وَإِشْرَاقُ أَنوارِ

(١) البساط .

(٢) أى : صحيح البخاري على ما رواه شريك بن أبي ثمير .

(٣) الكلام : للقاضى عياض .

معرفةه ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام .

ويتأول فيه ما يتأول في قوله^(١) : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » على أحد الوجوه نزول إفضال وإجمال ، وقبول وإحسان .

قال الواسطي : من توهם أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة ، بل كل ما دنا بنفسه من الحق تدل بعده ، يعني عن درك حقيقته . إذ لا دنو للحق ولا بعد .

وقوله^(٢) :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّ (١) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٢) ﴾

فمن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المخل ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد عليه السلام . وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التخفى ، وإنافة^(٣) المنزلة والرتبة من الله له .

ويتأول فيه ما يتأول في قوله « من تقرب مني شبرا ، تقربت منه ذراعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

قرب بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول .

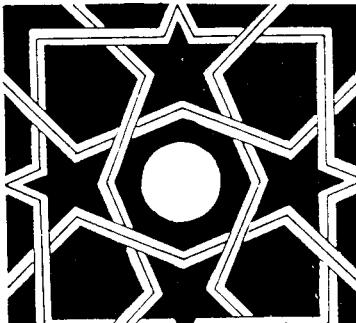
(١) كما جاء في كتب السنة عن أبي هريرة رضي الله عنه — مرفوعا .

(٢) الحجم : ٩ .

(٣) إنافة : رفع .

من - الـ ووجـ وـ من الـ اللـسـاـ وـ فـيـهـ كـلـ وـ اـضـهـ بـرـيـضـهـ جـمـلـهـ بـرـيـدـهـ بـرـيـسـاـ لـنـيـهـ

الفصل السادس



ينطوى كتاب الله العزيز على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه :

الوجه الأول : حسن تأليفه ، والشام^(١) كلامه ، وفصحته ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب :

وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان الكلام قد خصّوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم ، وأتوا من ذرابة اللسان^(٢) مالم يوت إنسان ... ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريبة وقوه ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها في المقامات ، ويرتحزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطقون من أو صافهم أجمل من سبط الآل^(٣) ، فيخدعون الألباب ، ويدلّون الصعب ، ويذهبون الإحن^(٤) ، ويهجرون الدمن^(٥) ، ويجرون الجبان ، ويسطون يد الجعد البنان^(٦) ، ويصيرون الناقص كاماً ، ويتكون التبيه خاماً .

(١) الشام : المناسب والانتظام .

(٢) ذرابة اللسان : حدته وقوته

(٣) سبط الآل : الخيط تسلك فيه حبات المؤلؤ .

(٤) الإحن : جمع إحنة وهي الحقد والبغضاء .

(٥) الدمن : جمع دمنة : وهي ما تبقى من آثار الديار .

(٦) الجعد البنان : أى منقبض اليد : كناية عن البخل .

منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى . ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف في القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية .. وقالوا في العث والسمين ، وتقاولوا في الفُل والكُثر ، وتساجلوا في النظم والنثر ، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز : (١)

﴿ لَا يَأْتِيهِ

الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢))
 أحكمت آياته وفصلت كلماته ، وبررت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحتها على كل مقول ، وتطافر (٣) إيجازه وإعجازه ، وظاهرة حقيقته ومجازه ، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا ، وأشهر في الخطابة رجالا ، وأكثر في السجع والشعر سجالا ، وأوسع في الغريب واللغة مقالا ، بلغتهم التي بها يتحاورون ، ومنازعهم التي عنها يتناضلون صارخاً بهم في كل حين ، ومقرعا لهم ببعضاً وعشرين عاماً على رعوس الملا أجمعين . (٤)
 ﴿ أَمْ يَقُولُونَ

آفَتَرَّنَهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهُ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥))

(١) البقرة : ٤٢

(٢) الإسراء :

(٣) هود : ١٣

(٤) يونس : ٣٨

(٥) تطافر : تفوق على غيره

وَإِن كُنْتُمْ

فِي دَيْنِ مَمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَأَذْعُوا
شَهَدَآءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْقُوا الْنَّارَ أَلْئَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴿١﴾

﴿ قُل لَّئِنْ جَمِيعَ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيْهِ أَن يَأْتُوا

يُمثِّلُ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا

﴿أَمْ يَقُولُونَ آفَرَبَرَهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشِيرِ سُورٍ مِثْلِهِ، مُفْتَرِيَّتٍ
وَأَدْعُوا مِنْ أَسْنَطْعَمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ۱۲﴾ (۳)

وذلك أن المفترى أسهل ، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب ، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب . وهذا قيل : فلان يكتب كما يقال ، وفلان يكتب كما يريد ، وللأول على الثاني فضل ، وبينهما شأو بعيد .

البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

الآيات : ٨٨

۱۳ : مود (۲)

والاد

فلم يزل يقرعهم — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أشد التقرير ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويندم آهتهم وإياهم .. ، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مثالته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والاغتراء بالاقراء ، وقولهم :

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ فِي إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾^(١)

﴿ سِحْرٌ مُسْتِرٌ ﴾^(٢)

﴿ إِلَّا فَكَمْ أَفْتَرْنَاهُ ﴾^(٣)

﴿ أَسْطِرْيُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٤)

والماهنة والرضى بالدنيئة كقولهم :

﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾^(٥)

﴿ فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي أَذَانِنَا وَقَرَّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾^(٦)

﴿ لَا سَمْعًا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾^(٧)

(١) المدثر : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) القراءة : ٨٨ .

(٢) القمر : ٢ .

(٦) فصلت : ٥ .

(٣) الفرقان : ٤ .

(٧) فصلت : ٢٦ .

(٤) الفرقان : ٥ .

ومن
لجميع
مفتون

وإلينا

لعلكم

لحلاوة

وما يقو

—

(١) الأنفال

(٢) البقرة

(٣) العوار

٢
ف

ون

والادعاء مع العجز بقولهم : (١)

﴿لَوْتَسَاءُ لَقَلَنَا مِثْلَ هَذَا﴾

وقد قال لهم الله : (٢)

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾

فما فعلوا ولاقدروا ،

ومن تعاطى ذلك من سفائهم كمسيلمة ، كشف عواره (٣)
لجميعهم .. وولوا عنه مدبرين ، وأتوا مذعنين من بين مهتد و بين
مفتون ، وهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي - عليه السلام : (٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قال « والله إن له

لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمعدق ، وإن أعلىه لمشر .
وما يقول هذا بشر » .

- وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : (٥)

﴿فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) الأنفال : ٣١ .

(٢) البقرة : ٢٤ .

(٤) النحل : ٩٠ .

(٥) الحجر : آية ٩٤ .

(٣) العوار : العيب والنقص .

فَسَجَدَ وَقَالَ : سَجَدَ لِفَصَاحَتِهِ .

— وَسَمِعَ آخَرَ يَقْرَأُ : (١)

﴿فَلَمَّا أَسْتَبَعْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَحْيَا﴾

قال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وَحَكَى الأَصْمَعِي أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ جَارِيَةً فَقَالَ لَهَا : « قاتَلَكَ اللَّهُ مَا
وَقُولُهُ وَأَصْحَكَكَ !! »

فَقَالَتْ : أَوْ يَعْدُ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : (٢)

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا إِلَيْمٌ مُؤْمِنٌ أَنَّ أَرْضِيَعَيْهِ فَإِذَا حَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ
وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَآدُوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ كَانَهُ ا

فَجَمِعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرِيْنِ وَنَهْيِيْنِ وَخَبْرِيْنِ وَبَشَارَتِيْنِ .

فَهَذَا نُوْعٌ مِنْ إِعْجَازِهِ مُنْفَرِدٌ بِذَاهِنِهِ غَيْرُ مُضَافٌ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى وَقْوَى
الْتَحْقِيقِ وَالصَّحِيحِ مِنَ الْقَوْلِيْنِ .

★★★

وَكَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّهُ أَنْتَ بِهِ مَعْلُومٌ لِلْقُوْرُ
ضُرُورَةٌ .

(١) يُوسُفُ : ٨٠

(٢) الْقَصْصُ : ٧

(١) الْقُرْآنُ

(٢) سَيَا

وكونه — عَلِيهِ اللَّهُ تَعَالَى — متحديا به معلوم ضرورة وعجز العرب عن
الإتيان به معلوم ضرورة .

وكونه في فصاحته خارقا للعادة معلوم ضرورة للعلميين بالفصاحة
ووجوه البلاغة . وسييل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكريين
من أهلها عن معارضته ، واعتراف المقربين بإعجاز بلاغته .

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : (١)

﴿ وَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيْثُ ﴾

ما
وقوله : (٢)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٣)

وقوله : (٤)

﴿ أَدْفَعْ بِأَنَّى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَوَةٌ ﴾

﴿ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ ﴾ (٤)

ملـىـ وقوله : (٤)

﴿ وَقِيلَ يَتَارِضُ أَبْلَغِي مَا إِكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِغِي ﴾

وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعدَمَا

لَوْمِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾

(١) البقرة ١٧٩ .

(٢) سباء ٥١ .

(٣) فصلت ٢٤ .

(٤) هود ٤٤ .

فأ قالوا : وأشباه ذلك من الآيات ، بل
 أكثر القرآن ، حفقت ما يبنته من إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ،
 ولا سـ وديابـجه عبارـتها ، وحسن تأـليف حروفـها ، وتلـاؤم كـلمـتها ، وأنـ
 وسـوـسـةـ الشـعـرـ تـحـتـ كلـ لـفـظـهـ مـنـهـ جـمـلاـ كـثـيرـةـ ، وـفـصـنـولـاـ جـمـةـ ، وـعـلـومـاـ زـوـاـخـرـ .
 بـشـاعـرـ
 قالـواـ
 عـقـدـهـ
 أـعـرـفـ
 الرـءـ وـ
 فـنـرـقـواـ
 وـالـأـ
 التـوـعـينـ
 مـنـهـماـ نـ
 الغـرـيـبـ الـخـالـفـ لـأـسـالـيـبـ كـلـامـ الـعـرـبـ ، وـمـنـاهـجـ نـظـمـهـ وـنـثـرـهـ الـذـىـ
 جـاءـ عـلـيـهـ ، وـوـقـفـتـ مـقـاطـعـ آـيـةـ ، وـانتـهـتـ فـوـاـصـلـ كـلـمـاتـهـ إـلـيـهـ ، وـلـمـ
 يـوـجـدـ قـبـلـهـ وـلـاـ بـعـدـ نـظـيرـ لـهـ ، وـلـاـ اـسـطـاعـ أـحـدـ مـمـاثـلـةـ شـيـءـ فـيـهـ مـنـهـ ،
 بـقـوـلـ تـ
 الـعـلـمـ
 خـاطـرـهـ
 وـقـدـ
 يـقـوـلـ :
 إنـ وـفـودـ الـعـرـبـ تـرـدـ فـأـجـمـعـواـ فـيـهـ رـأـيـاـ لـاـ يـكـذـبـ بـعـضـكـمـ بـعـضـاـ

★★★

الـوـجـهـ الـثـانـيـ مـنـ إـعـجـازـهـ : صـورـةـ نـظـمـهـ الـعـجـيبـ وـالـأـسـلـوبـ
 الغـرـيـبـ الـخـالـفـ لـأـسـالـيـبـ كـلـامـ الـعـرـبـ ، وـمـنـاهـجـ نـظـمـهـ وـنـثـرـهـ الـذـىـ
 جـاءـ عـلـيـهـ ، وـوـقـفـتـ مـقـاطـعـ آـيـةـ ، وـانتـهـتـ فـوـاـصـلـ كـلـمـاتـهـ إـلـيـهـ ، وـلـمـ
 يـوـجـدـ قـبـلـهـ وـلـاـ بـعـدـ نـظـيرـ لـهـ ، وـلـاـ اـسـطـاعـ أـحـدـ مـمـاثـلـةـ شـيـءـ فـيـهـ مـنـهـ ،
 بـقـوـلـ تـ
 الـعـلـمـ
 خـاطـرـهـ

— قال الوليد بن المغيرة لقریش :

إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا

(١) اندهشت .

(٢) عقوبهم .

(١) الرزوة

(٢) النفث

قالوا : نقول : كاهن قال : والله ما هو بكافر ، ما هو بزمته^(١) ولا سجعه » قالوا « مجنون » قال : ما هو بمجنون ولا بخافه ولا وسوسته » قالوا « فنقول شاعر » قال « ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقوسطه ، ما هو بشاعر .

قالوا : فنقول : « ساحر » قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده^(٢) قالوا « فما نقول » ؟ قال ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وأن أقرب القول أنه ساحر ، فإنه سحر يفرق بين المرأة والمرء ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته » . فتفرقوا وجلسوا على السبيل يحدرون الناس .

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة ، والإعجاز بكل واحد من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها ، والأسلوب الغريب بذاته كل واحد منها نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منها ، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مباین لفصاحتها وكلامها . وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين ، وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب ، وأقى على ذلك بقول تمجيء الأسماء ، وتتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه والعلم بهذا ضرورة وقطعا . ومن تفنن في علوم البلاغة ، وأرهف خاطرها ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه .

وقد اختلف أئمة أهل السنة في بيان وجوه إعجازه فأكثرهم يقول : إنه مما جمع في قوة جزالته ونصاعته ألفاظه ، وحسن نظمه

(١) الزمرة : الصوت الخفي .

(٢) النفث : النفح ، والنفت في العقد من أعمال السحرة .

وإيجازه ، وبديع تأليفه وأسلوبه ، لا يصح أن يكون في مقدور البشر . وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها : كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصا .

وذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه ، وعلى الطريقتين فعجز العرب عنه ثابت ، وإقامة الحجة عليهم بما أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بهنله قاطع ، وهو أبلغ في التعجيز ، وأحرى بالتفريع . والاحتجاج بمحىء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهى آية ، وأقمع دلالة .

وعلى كل حال فما أتوا من ذلك بمقابل بل صبروا على الجلاء ، والقتل ، وتجربوا كاسات الصغار^(١) والذل ، وكانوا من شوخ الأنف ، وإباء الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ، ولا يرضونه إلا اضطرارا ، وإن فالمعارضة لو كانت من قدرهم^(٢) ، والشغل بها أهون عليهم ، وأسرع بالجحْ وقطع العذر ، وإفحام الخصم لديهم ، وهم من لهم قدرة على الكلام ، وقدوة في المعرفة به لجميع الأئم ، وما منهم إلا من جَهَدْ جَهْدَه ، واستنفر ما عنده في إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره فما جلو^(٣) في ذلك خيبة من بنات شفاههم^(٤) ، ولا بنطقة من معين مياههم ، مع طول الأمر ، وكثرة العدد وتظاهر

(١) الصغار : المذلة .

(٢) قُدرِهم : جمع قدرة

(٣) أظهروا .

(٤) بنات الشفاه : كناية عن الكلمات .

الوالد وما ولد ، بل أبلسو^(١) فما نبسو^(٢) ، ومنعوا فانقطعوا ،
فهذا النوعان من إعجازه .

والوجه الثالث من الإعجاز : ما انطوى عليه من الإخبار
بالمغيبات ، ومالم يكن ، ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي
أخبر :

— قوله تعالى :^(٣)

﴿ لَنَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ ﴾

— قوله تعالى :^(٤)

﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾

— قوله تعالى :^(٥)

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلَّهُ، وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾

— قوله تعالى :^(٦)

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرٌ اللَّهُ وَالْفَتْحُ ﴾

(١) أَبْلَسُوا : يَسْوَى .

(٢) نَبَسُوا : نَطَقُوا .

(٣) الصَّفَ : ٩ .

(٤) التُّورَ : ٥٥ .

(٥) الْفَتْحُ : ٢٧ .

(٦) الرُّومُ : ٣ .

فكان جميع

هذا كما قال ، فغلبت الروم فارس في بضع سنين ، ودخل الناس في الإسلام أتواجا ، فما مات عليه — وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام .

واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكث دينهم ، وملكتهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال عليه السلام « زويث ^(١) الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ^(٢)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

فكان كذلك ، وما قدر أعداؤه على إطفاء شيء من نوره ، ولا تغيير كلمة من كلامه ، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه والحمد لله .

ومنه قوله تعالى : ^(٣)

﴿سَيِّهِمْ آجِمُونُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾

وقوله تعالى : ^(٤)

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ أَلَدَبَارُّمْ لَا يُنَصَّرُونَ﴾

(١) زويث : جمعت وطوبت : والحديث أخرجه مسلم .

(٢) الحجر : ٩ .

(٣) القمر : ٤٥ .

(٤) آل عمران : ١١١ .

فكان كل ذلك وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقامهم وكذبهم في حلفهم ، وتقريعهم بذلك .

— ومنه قوله تعالى : (١)

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئَ بِنَّنَّ ﴾

ولما نزلت بشر

النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم ، وكان المستهزئون نفراً بمكة ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه فهللوكوا .

— وقوله تعالى : (٢)

﴿ وَاللَّهُ يَعِصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

فكان كذلك على كثرة من رام ضره ، وقصد قتله .

★★★

والوجه الرابع : ما أتبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشائع الدائر (٣) مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك .

فيورده النبي - ﷺ - على وجهه ، ويؤقى به على نصه ، فيتعرف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله لم يبنه بتعليم .

وقد علموا أنه - ﷺ - أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل

(١) المحرر ٩٥ .

(٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) الدافورة : الدارسة .

بعدارسة ولا مثافنة^(١) . وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه — عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً : كقصص الأنبياء مع قومهم ، وخبر موسى والخضر ويوسف ولماحاته ، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، ولقمان وابنه وأشيه ذلك من الأنبياء ، وبده الخلق ، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، مما صدقه فيه العلماء بها ، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها ، بل أذعنوا لذلك ، فمن موفق آمن بما سبق له من خير ، ومن شقى معاند حاسد .

ومع ذلك لم يُحكَ عن واحد من النصارى واليهود على شدة عدواهم لهم ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم ، وتقريرهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، وكثرة سؤالهم له — عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم ، وأسرار علومهم ، ومستودعات سيرهم ، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم . ومضمنات كتبهم ، مثل سؤالهم عن الروح ، وذى القرنين وأصحاب الكهف ، وعيسي ، وحكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم ، فحرمت عليهم بغيرهم .

وقوله تعالى :^(٢)

﴿إِذَا لِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْتَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾

(١) يعني بالخلافة محاسبة أهل العلم طويلاً والتلقى عنهم .

(٢) الفتح : ٢٩

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم ، وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك . فما عرف عن أحد أنه أنكر ذلك ، أو كذبه ، بل أكثرهم صرخ بصحة نبوته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده ، وحسده إياه .

ومن باهت في ذلك بعض المباحثة ، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دعى إلى إقامة حجته وكشف دعوته ، فقيل له .

﴿ قُلْ فَاتُوا بِالنُّورِ هَذَا لَوْهًا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴾ (١) فَمَنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢)

فقرع ووبخ ،

ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع ، فمن معترض بما جحده ، ومتواقع يلقى على فضيحته من كتابه يدُه ، ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ، ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه .

قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفِونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ نُورٌ وَكِتَابٌ مِبِينٌ ﴾ (٣) يهدى به الله من آتى من رضوانه وسبلَّ أَسَلَّمَ وَيَخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤)

(١) آل عمران : ٩٣ - ٩٤ .

(٢) المائدة : ١٥ - ١٦ .

هذه هي الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مزية .

ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه : آى وردت بتعجيز قوم في قضايا ، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ، ولا قدروا على ذلك : كقوله لليهود : ^(١)

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ

الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةٌ مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَدِيقِنَ ﴿٢﴾

قال أبو إسحق الزجاج : في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة ، لأنّه قال لهم « فتمنا الموت » وأعلمهم أنهم لا يتمنوه أبدا ، فلم يتمنه واحد منهم .

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى ، حيث وفّد عليه أساقة نجران ، وأتوا الإسلام ، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله : ^(٢)

﴿ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ لَمْ نَتَهَلُّ
فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

(١) البقرة : ٩٤ .

(٢) آل عمران : ٦١ .

فامتنعوا منها ، ورضوا بأداء الجزية ،
وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم : قد علمت أنهنبي ، وأنه ما
لَا عنَ قوماً نبِيٌّ قط فبقيَ كبارهم ولا صغيرهم ١٠ .

★★★

ومن إعجازه : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند
سماعه ، والهيبة التي تعترفهم عند تلاوته لقوة حاله ، وإنابة خطره^(١)
وهى على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستقلون سماعه ، ويزيدهم
نفورا .. كما قال تعالى^(٢) . ويودون انقطاعه لكراهتهم له ، وهذا
قال — عليه السلام — « إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو
الحكم » .

وأما المؤمن فلا تزال روعته به ، وهيبته إياه مع تلاوته تحوله
النجابا ، وتكتسبه هشاشة لم يل قلبه إليه ، وتصديقه به : قال تعالى:

﴿ تَقْشِيرٌ مِّنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْشُونَ ﴾

ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله^(٣) .

﴿ لَوْأَنَزَلْنَاهُنَّا أَلْقَرْءَانَ ﴾

علَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَلْقًا مُتَصَدِّقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾٤﴿

(١) إنابة : سمو ورفعة .

(٢) اشارة إلى قوله تعالى « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أديارهم نفوراً »
الإسراء ٤٦ .

(٤) الحشر : ٢١ .

(٣) الزمر : من الآية : ٢٣ .

فوجعه
وكاد
رام شيئاً
وينسج
على التو
ومن
الدنيا مـ

وما يدل على أنها خصوصية من خصوصيات القرآن . أن هذه الهيبة تتعلى من لا يفهم معانيه ، ولا يعلم تفاسيره ، كما روى عن نصراني : أنه مر بقارئ فوقف يبكي ، فقيل له مت بك ؟ فقال : للشجا والنظم ^(١) .

وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن بالرسول عليه السلام ، ومنهم من كفر .

عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي - ﷺ - يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية :

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أُمْ هُمْ أَخْلَقُونَ ﴾ ^(٢)
﴿خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ^(٣) أُمْ عِنْدَهُمْ خَزَانَةُ رِبِّكَ
﴿أُمُّهُمْ الْمُصْبِطُرُونَ ﴾ ^(٤) ^(٥) كاد قلبي أن يطير للإسلام .

وقد حكى عن غير واحد من رام معارضته أنه اعتبرته روعة وهيبة كف بها عن ذلك : فبحكمي أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه ، وشرع فيه ، فمر بصبي يقرأ :

﴿وَقَيْلَ يَتَارِضُ أَبْلَى مَاءِكَ وَيَسَّمَاءُ أَقْلَى
وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضَى الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقَيْلَ بُعدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٦) ^(٧) ^(٨)

(١) أي : لما اعتبره من الحزن ، وما أخذ قلبه من روعة الأسلوب وجلاله .

(٢) الطور : ٣٥ - ٣٧ .

(٣) هود : ٤٤ .

(٤) الحجر

(٥) فصلت

(٦) جهابذ

(٧) يؤثر :

فرجع فمحا ما عمل ، وقال أشهد أن هذا لا يعارض .

وكان يحيى بن حكيم الغزال بليع الاندلس في زمانه فحكي : أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ليجدوا على مثاهم ، وينسج بزعمه على منواهم ، قال : فاعتبرتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة .

ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تendum ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال تعالى : (١)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾

﴿لَا يَأْتِيهِ﴾

﴿الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

وسائل معجزات الأنبياء انقضت بإنقضاضها أو قاتتها ، فلم يبق إلا خبرها . والقرآن العزيز الباهر آياته ، الظاهرة معجزاته على ما كان عليه إلى وقتنا هذا ، حجته قاهرة ، ومعارضته ممتنعة ، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان ، وحملة علم اللسان ، وأئمة البلاغة ، رفسان الكلام ، وجهابذة^(٢) البراعة ، والملحد فيهم ، والمغادى للشرع عتيد ، مما منهم من أتى بشيء يؤثر^(٤) في معارضته ، ولا ألف

(١) الحجر : ٩ .

(٢) فصلت : ٤٢ .

(٣) جهةبنة : جمع جهيد وهو العالم الفائق .

(٤) يؤثر : ينقل عنه .

كلمتين في مناقضته ، ولا قدرة فيه على مطعن صحيح ، ولا قدح
المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح^(١) .

بل المؤثر عن كل من رام ذلك إلقاءه في العجز بيديه ،
والنكوص^(٢) على عقبيه .

★★★

ومنه

وقد عَدَ جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة في إعجازه وجوها كثيرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
منها :

أن قارئه لا يمله ، وسامعه لا يجُجُّه^(٣) ، بل الإكباب على تلاوته فجمِّع
يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، لا يزال غضا طريا ، وغيره والعقلاء
من الكلام — ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغة — يُمْلِأ مع التردید ، الألفاظ
ويعادى إذا أعيد . وكتابنا يُسْتَلَذُ به في الخلوات ، ويؤنس بتلاوته في مثلها فد
الأزمات ، وسواء من الكتب لا يوجد فيها ذلك ، حتى أحدث لها كقوله ت
 أصحابها لحونا وطرقًا يستجلبون بذلك اللحون تشريطهم على
خلقتَه .

ولهذا وصف رسول الله^(٤) — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — القرآن بأنه « لا يَخْلُقُه^(٥) الْعَلِيمُ »
على كثرة الرد ، ولا تقضى عبره ، ولا تفني عجائبه . هو الفصل^(٦)
ليس بالهزل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ^(٧) به الأهواء ، ولا قوله ت

﴿ قُل ﴾

(١) صحيح : بخيل . والعبارة كنایة عن إخفاق كم من حاول معارضة القرآن .

(٢) النكوص : الرجوع .

(٣) يجع : يلفظ الشراب من فيه . ويقصد يكرهه .

(٤) سنن الترمذى باب فضائل القرآن .

(٥)

(١) الجن

(٢) رام :

(٣) المتحذ

(٦)

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

(١١)

(١٢)

(١٣)

(١٤)

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

نلبس به الألسنة ، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا : (١)

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾

★★★

ومنها : جمعة لعلوم و المعارف لم تعهد العرب عامة ، ولا محمد —
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قيل نبوته خاصة بمعرفتها ، ولا القيام بها ، ولا يحيط بها أحد
من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم .

، فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتبه على طرق الحجج
، والعقليات ، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة
، الألفاظ موجزة المقاصد ، رام (٢) المتختلفون (٣) بعد أن ينصبوا أدلة
، مثلها فلم يقدروا عليها .

أ) كقوله تعالى : (٤)

﴿ أَولَيْسَ اللَّهُذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَّ وَهُوَ أَنْخَلَقُ

﴾ الْعَلِيمُ (٥)

ب) وقوله تعالى : (٦)

﴿ قُلْ يُحَسِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧) ﴾

(١) الجن : ١ ، ٢ .

(٢) رام : أراد .

(٤) بس : ٨١ .

(٥) بس : ٧٩ .

(٦) المتختلفون : أدعية الفهم .. والقطنة والذكرة .

وقوله تعالى : (١)

لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَّا أَلَّا إِلَهَ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢)

إِلَى مَا حَوَاهُ مِنْ عِلْمٍ السِّيرُ ، وَأَنْبَاءُ الْأَمْ
وَالْمَوَاعِظُ وَالْحُكْمُ ، وَأَخْبَارُ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمَحَاسِنُ الْأَدَابِ وَالشَّيمِ ،
قَالَ اللَّهُ — جَلَّ اسْمَهُ : (٣)

مَا فَرَطَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٤)

وَقَالَ : (٥)

وَلَقَدْ ضَرَبَنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْأُثُرَ إِنَّمَنِ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جَعَلْتُمُ بِعَيْنِهِ لِيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَنِ
إِلَّا مُبْطِلُونَ (٦)

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ آمِرًا وَزَاجِرًا وَسَنَةً
خَالِيَةً ، وَمِثْلًا مَضْرُوبًا فِي نَبْؤَكُمْ ، وَخَبْرًا مَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَنَبَأًا مَا
بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمًا مَا بَيْنَكُمْ ، لَا يُخْلِقُهُ طَوْلُ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضُ
عَجَابَهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِهُنْزُلٍ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدْقًا ، وَمَنْ حَكَمَ

(١) الأنبياء : ٢٢ .

(٢) الأنعام : ٣٨ .

(٣) الروم : ٥٨ .

بِهِ
عَمَلٌ
طَلَبٌ
الْذَّهَبُ
الْمَتَّعُ
يَعْوِزُ
يَخْلُقُ

وَقَالَ

أَكْثَرَ

وَقَالَ

فَ

الْكَتَبُ

—
(١) ظ
(٢) س
(٣) بـ
(٤) التـ

بـه عـدـلـ ، وـمـنـ خـاصـمـ بـهـ فـلـجـ^(١) ، وـمـنـ قـسـمـ بـهـ أـقـسـطـ^(٢) وـمـنـ
عـمـلـ بـهـ أـجـرـ ، وـمـنـ تـمـسـكـ بـهـ هـدـىـ إـلـىـ صـرـاطـ . مـسـتـقـيمـ . مـنـ
طـلـبـ الـهـدـىـ مـنـ غـيـرـهـ أـضـلـهـ اللـهـ ، وـمـنـ حـكـمـ بـغـيـرـهـ قـصـمـهـ اللـهـ . هـوـ
الـذـكـرـ الـحـكـيمـ ، وـالـنـورـ الـمـبـيـنـ ، وـالـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ ، وـحـبـلـ اللـهـ
الـمـتـنـ ، وـالـشـفـاءـ النـافـعـ . عـصـمـةـ لـمـنـ تـمـسـكـ بـهـ ، وـنـجـاـةـ لـمـنـ أـتـبـعـهـ لـاـ
يـعـوجـ فـيـقـوـمـ ، وـلـاـ يـزـيـغـ فـيـسـتـعـتـبـ^(٣) ، وـلـاـ تـنـقـضـ عـجـائـبـ ، وـلـاـ
يـخـلـقـ عـلـىـ كـثـرـ الرـدـ .

وـقـالـ تـعـالـىـ :^(٤)

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

﴿أَكْثَرُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَمْتَلِفُونَ﴾^(٥)

وـقـالـ تـعـالـىـ :^(٦)

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُنْتَفَيِنَ﴾^(٧)

فـجـمـعـ فـيـ الـقـرـآنـ مـعـ وـجـازـةـ الـأـفـاظـ وـجـوـامـعـ كـلمـهـ أـضـعـافـ ماـ فـ
الـكـتـبـ قـبـلـهـ التـىـ أـفـاظـهـ عـلـىـ الـضـعـفـ مـنـهـ مـرـاتـ .

★★★

وـمـنـ وـجـوهـ إـعـجازـهـ : جـمـعـهـ بـيـنـ الدـلـولـ وـمـدـلـولـهـ^(٨) ، وـذـلـكـ أـنـهـ اـحـتـجـ
بـنـظـمـ الـقـرـآنـ ، وـحـسـنـ وـصـفـهـ ، وـإـبـجازـهـ وـبـلـاغـتـهـ ، وـأـثـنـاءـ هـذـهـ الـبـلـاغـةـ

(١) ظـفـرـ وـغـلـبـ . (٥) آلـعـمـرانـ : ١٣٨ .

(٢) عـدـلـ . (٦) أـىـ الـقـصـيـةـ أـوـ الـحـقـيـقـةـ التـىـ سـيـقـ الدـلـلـ لـإـنـبـاعـهـ أـوـ تـأـكـيدـهـ .

(٣) يـسـتـعـبـ : يـلـامـ وـيـعـابـ .

(٤) الـثـلـلـ : ٧٦ .

أمره ونفيه ووعده ووعيده ، فالثالث^(١) له يفهم موضع الحجة
والتكليف معا من كلام واحد ، وسورة منفردة .

★★★

ومنها : أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يتعهد . ولم يكن في
النشر ، لأن المنظوم أسهل على النفوس ، وأوسع للقلوب ، وأسمع
في الآذان ، وأحلى على الأفهام فالناس إليه أميل ، والأهواء^(٢) إليه
أسرع .

★★★

ومن وجوه إعجازه أيضا : تيسيره تعالى حفظه لتعلمها ، وتقريبه
على متحفظيه .

قال تعالى : ^(٣)

﴿ وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْءَانَ لِلِّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ ﴾

وسائل الأم لا يحفظ كتبها الواحد منهم ، فكيف الجماء^(٤) على
مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة .

★★★

ومنها : مشاكلة بعض أجزاءه ببعضها ، وحسن ائتلاف أنواعها ،
والشام أقسامها ، وحسن التخلص^(٥) من قصة إلى أخرى ، والخروج
من باب إلى غيره على اختلاف معانيه ، وانقسام السورة الواحدة
إلى : أمر ونفي ، وخبر واستئخار ، ووعد ووعيد ، وإثبات نبوة

(١) الأهواء : الرغبات والميل .

(٢) الثالث : القراء .

(٣) القراء : ١٧

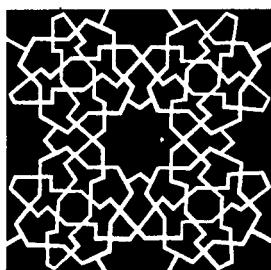
(٤) الجماء : الكثير .

(٥) الخروج .

وتوحيد ، وتقدير^(١) وترغيب وترهيب ، إلى غير ذلك من فوائد ، دون خلل يخلل فصوله . والكلام الفصيح إذا اعتبره^(٢) مثل هذا ضعفت قوته ، ولانت جزاته ، وقل رونقه ، وتقللت ألفاظه .

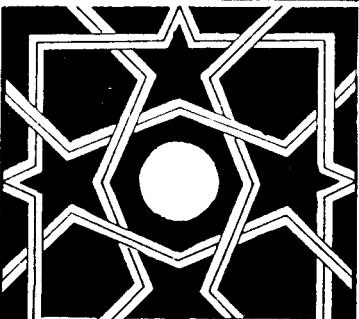
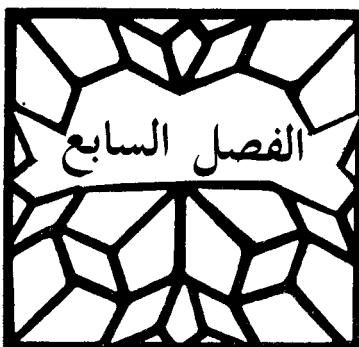
فتأمل أول سورة (ص) ، وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم ، وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، وما ذكر من تكذيبهم بمحمد ﷺ ، وتعجبهم مما أتى به ، والخبر عن اجتماع ملتهم على الكفر ، وما ظهر من الحسد في كلامهم ، وتعجيزهم ، وتوهينهم ، ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة ، وتکذیب الأئمّة قبلهم ، وإهلاك الله لهم ، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم ، وتصير النبي - ﷺ - على أذاهم ، وتسليته بكل ما تقدم ذكره ، ثمأخذ في ذكر داود ، وقصص الأنبياء . كل هذا في أوج كلام ، وأحسن نظام .

وغير هذا كثير ذكر في إعجاز القرآن مما يدخل في باب بلاغته ويحتاج إلى كلام كثير .



(١) يقصد بالتقدير : إقرار ما جاء في شرع من قبلنا ووافق ما عليه ملتنا .

(٢) أصحابه .



للنبي — عليه السلام — حقوق على المسلمين أهمها :

١ - وجوب الإيمان به وتصديقه فيما أقى به :

— وقد قال تعالى في ذلك : (١)

﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ﴾

﴿الَّذِي أَنْزَلَنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٢)

— وقال تعالى : (٣)

﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي أَلْمَى الَّذِي يُؤْمِنُ

﴿بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٤)

فالإيمان بالنبي محمد — عليه السلام — واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ،
ولا يصح إسلام إلا معه .

— قال تعالى : (٥)

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (٦)

(١) التغابن : ٨ .

(٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) الفتح : ١٣ .

عن أبي هريرة — رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ — قال : أمرث أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي ، وبما جئت به . فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .. » .

والإيمان به — ﷺ — هو تصديق نبوته ، ورسالة الله له ، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ، ومتابقة تصدق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله — ﷺ — فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له .

وقد قال جبريل للنبي ﷺ : أخبرني عن الإسلام . فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وذكر أركان الإسلام . ثم سأله عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .. » .

فقد قرر أن الإيمان به يحتاج إلى العقد^(١) بالجنان^(٢) ، والإسلام به إلى النطق باللسان . وهذه الحالة المحمودة التامة . وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب ، وهذا هو النفاق .

قال الله تعالى : ^(٣)

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَسْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾

(١) العقد : الإيمان الحاسم .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) المنافقون : ١ .

أى كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم ، وهم لا يعتقدونه ، فلما لم تصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بأسئتهم ما ليس في قلوبهم ، فخرجوا عن اسم الإيمان ، ولم يكن لهم في الآخرة حكمه . ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة ، وحكام المسلمين ، الذين أحکامهم على الظواهر . بما أظهروه من عالمة الإسلام ، إذ لم يجعل للبشر سبيل إلى السرائر ، ولا أمروا بالبحث عنها .

٤- وجوب طاعته :

وأما وجوب طاعته ، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به ، وجبت طاعته ، لأن ذلك مما أتى به .

— قال تعالى : (١)

﴿إِنَّا يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يُنَزَّلُ الْكِتَابُ لِلْأَنْذِيرِ﴾

— وقال تعالى : (٢)

﴿مَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

فجعل تعالى

طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل الشواب ، وأوعده على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امثال أمره ، واجتناب نهيه .

(١) الأنفال : ٢٠ .

(٢) النساء : ٨٠ .

قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول في التزام سنته ، والتسليم لما جاء به ، وقالوا : ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه ، وقالوا : من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه . وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : ^(١)

﴿فَيَنْلَبَّتْنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾

فتمنا طاعته حيث لا ينفعهم التمني .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « مثلى ومثل ما يعشى الله به كمثل رجل أقى قوما فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإنى أنا النذير العريان ^(٢) ، فالنجاء الجاء ^(٣) .

فأطاعة طائفة من القوم فأدلجوا ^(٤) ، فانطلقو على مهلهم فنجوا . وكذبت طائفة منهم فأصيروا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به » .

★★★

٣ - وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه .

وأما وجوب اتباعه — ^{صلوات الله عليه} — وامتثال سنته ، والاقتداء بهديه

(١) الأحزاب : ٦٦ .

(٢) النذير العريان : من يخلع ثيابه ويلوح بها مندراً معدراً حتى يراه القريب والبعيد .

(٣) النجاة : والخلاص .

(٤) ساروا ليلا .

فقد قال تعالى : (١)

﴿ قُلْ إِنَّ

كُنُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٢١﴾

وقال تعالى : (٢)

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسْلِمُوا
سَلِিমًا ﴾ ٤٥﴾

أى يقادوا لحكمك ، يقال « سلم » واستسلم » و « أسلم » إذا
انقاد .

وقال تعالى : (٣)

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ أَلَاخِرٌ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ٦١﴾

وقيل هو عتاب للمختلفين عنه . وقد أرسل الله تعالى رسوله
بالمدى ودين الحق ليزكيهم . ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، ويهديهم
إلى صراط مستقيم .

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) النساء : ٦٥ .

(٣) الأحزاب : ٢١ .

عن العرباض بن سارية — رضي الله عنه — في حديثه في موعظة النبي — عليه السلام انه قال « فعليكم بستى وسنة الخلفاء الراشدين المهدىين ، عصوا عليها بالتواجد ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلاله ». .

وفي حديث أبى رافع عنه عليه السلام لا ألفين^(١) أحدكم متكتا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نبأته فيقول : لا أدرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه .

وقال عليه السلام : « من اقتدى بي فهو منى ، ومن رغب عن سنتى فليس منى ». .

وقال عليه السلام : العلم ثلاثة ، فما سوى ذلك فهو فضل^(٢) : « آية محكمة ، أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ». .

وعن أبى هريرة — رضي الله عنه — عن النبي عليه السلام المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد .

ويروى أن النبي — عليه السلام — قال لبلال بن الحارث : « من أحيا سنة من سنتى قد أحييت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ». .

ومن ابتدع بدعة ضلاله لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا ». .

(١) لا ألفين : لا أجدن .

(٢) الفضل هو الزيادة .

وقد كان السلف والأئمة يحرصون على اتباع سنته — ﷺ —
ويقتدون بهديه وسيرته .

قال عمر بن عبد العزيز : « سنّ رسول الله — ﷺ — سننا
الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين
الله .. من اتقى بها فهو مهتد ، ومن انتصر بها منصور ، ومن
خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم
وساءت مصيرًا » .

وقال ابن عمر : صلاة السفر ركعتان ، من خالف السنة كفر .

وقال الشافعى : ليس في سنة رسول الله ﷺ — إلا اتبعها » .

وقال عمر — رضي الله عنه — ونظر إلى الحجر الأسود « إنك
حجر لا تنفع ولا تضر ، ولو لا أني رأيت رسول الله — ﷺ —
يقبلك ما قبلتك » ثم قبله .

وروى عبد الله بن عمر يدير ناقه في مكان فسئل عنده فقال « لا
أدرى ، إلا أني رأيت رسول الله — ﷺ — فعله ففعلته » .

وقال أبو عثمان الحيري « من أمر السنة على نفسه قولًا وفعلاً نطق
بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

وقال سهل التستري : أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبي —
ﷺ — في الأخلاق والأفعال ، والأكل من الحلال ، وإخلاص النية
في جميع الأعمال .

وجاء في تفسير قوله تعالى : (١) ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرَفَعُهُ ﴾

(١) فاطر : ١٠ .

أنه الاقتداء برسول الله ﷺ .

غير

آل

٤ — حظر مخالفته أمره :

ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة مُتَوَعِّدٌ من الله عليه بالخذلان والعداب .

قال تعالى : (١)

﴿ فَلَيَحْذِرَا الَّذِينَ

﴿ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٩)

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ

وقال تعالى : (٢)

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّسِعُ غَيْرُ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولِهِ
مَا تَوَلَّ وَنَصِّلِهِ جَهَنَّمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٣٠)

وقال عليه السلام : « من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد ». (٣)

وقال — ﷺ — وجئء بكتاب في كتف (٣) : « كفى بقوم حما ، أو قال — ضلالا — أن يرغبا عما جاء به نبيهم أو كتاب

(١) التور : ٦٣ .

(٢) النساء : ١١٤ .

(٣) أي جاءه أحد الصحابة بعزم كتف البعير وقد كتب عليها كلام .

(١)

(٢)

غير كتابهم ، فنزل قوله تعالى : (١)

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ
الْكِتَابَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةً وَذِكْرًا لِفَوْمِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لست تاركا شيئاً كان
رسول الله عليه السلام - يعمل به إلا عملت به ، إنما أخشى إن تركت
شيئاً من أمره أن أزيغ .

★★★

هـ لـ زـوـمـ مـعـيـهـ

قال الله تعالى : (٣)

﴿ قُلْ إِنَّ كَانَ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعِشِيرَاتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَقْرَبِهِنَّا وَتِجَارَةُ
نَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَكِنُ
تَرَضُونَهَا أَحَبَ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤)

(١) العنكبوت : ٥١ .

(٢) التوبه : ٢٤ .

(٣) العنكبوت : ٥١ .

فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على التزام محنته ، ووجوب فرضها ، وعظم خطرها . واستحقاقه لها — ﷺ ، إذ قرع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى : « فtribصوا حتى يأق الله بأمره » ، ثم فسّرهم بتام الآية ، وأعلمهم أنهم من ضل ولم يهدى الله .

وَعَنْ أَنْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ « ثَلَاثٌ مِّنْ كُنَّ فِيهِ وَجْدًا حَلاوةً إِلِيمَانٌ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَا سَوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءُ لَا يُحِبْهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ يُكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يُكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » .

عن صفوان بن قدامة : هاجرت إلى النبي - ﷺ فأتيته ،
فقلت : يا رسول الله : ناولني يدك أباعيك ، فناولني ، فقلت يا
رسول الله إني أحبك . قال : المرء مع من أحبّ » .

روى أن رجلاً أتى النبي - عليه السلام - فقال يا رسول الله ، لأنك أحب إلى من أهلك ومالك ، وإن لاذكرك فما أصبر حتى أحىء فأنظر إليك ، وإن ذكرت موقِي وموئلِك ، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبِيِّن ، وإن دخلتها لا أراك . فأنزل الله تعالى : (١)

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

فَأَوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴿١﴾

جذ (۱)

(۲) هـ

(١) النساء : ٦٨ .

فدعابه فقرأها عليه .

وفي حديث أنس رضي الله عنه : من أحبني كان معنی في الجنة .

★★★

وقد روی عن السلف والأئمة كثير من الأخبار التي تدل على
محبتهم للنبي — عليهما السلام — وشوقهم له :

— روی عن أبي بكر — رضي الله عنه أنه قال للنبي — عليهما السلام —
والذى بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعينى من إسلامه —
يعنى أباه أبا قحافة — وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك » .

— وروی أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم
أحد مع رسول الله — عليهما السلام — فقالت ما فعل رسول الله —
عليهما السلام ؟ قالوا : خيرا ، وهو بحمد الله كما تخين ، قالت : أرنيه حتى
أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل^(١) .

— ولما احضرت بلال — رضي الله عنه — نادت امرأته :
واحزناه ، فقال : واطرباه ، غدا ألقى الأحبة محمدا وحزبه .

— ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدئنة^(٢) من الحرم ليقتلوه ، قال
له أبو سفيان : أنسدك الله يازيد : أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك
يضرب عنقه وأنك في أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه

(١) جلل : هيئة محتملة .

(٢) هو صحابي جليل أسر يوم الرجيع مع خبيب ، وبهذا في مكة .

تصيبه شوكة وإن جالس في أهل ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب حب أصحاب محمد .

والصادق في حب النبي - ﷺ - تظهر عليه علامات هذا الحب وهي :

أ - الاقتداء به وحب سنته واتباع أقواله وأفعاله ، وامثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه .

وشاهد هذا قوله تعالى : (١)

﴿ قُلْ إِنَّكُمْ مُّحِبُّونَ اللَّهُ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ب - إثارة ما شرعه وحضر عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته .

قال تعالى : (٢)

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُونَ الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أَتَوْا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةً ﴾

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) هم الأنصار ، وتبعهم الإيمان يعني استقراره وقوته ونفعه من قلوبهم .

(٣) الخاصة : الفقر وال الحاجة . الحشر ٩ .

ج : كثرة ذكر النبي :

فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره .

د — كثرة الشوق إلى لقائه :

فكل حبيب يحب لقاء حبيبه . وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون :
غدا نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

ه — تعظيمه وتوقيره عند ذكره ، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه .

وقد روى أن أصحاب رسول الله — عليه السلام — بعده لا يذكرون إلا خشعوا ، واقشعرت جلودهم وبكوا ، وكذلك كثير من التابعين . منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقاً إليه ، ومنهم من يفعله تهيباً وتوقيراً .

و — محبة من أحب النبي — عليه السلام — ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار وعداؤه من عاداهم ، وبغض من أبغضهم وسبهم .

فمن أحب شيئاً أحب من يحب . وقد قال عليه السلام في الحسن والحسين : « اللهم إني أحبهما فأحبهما » وقال : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً^(١) بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فيبغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

(١) غرضاً : هدفاً لسبكم والنيل منهم .

وقد قال أنس حين رأى النبي - ﷺ - يتبع الدباء^(١) من حوالى القصعة « فما زلت أحب الدباء من يومئذ » .

ز : بعض من أبغض الله ورسوله ، ومعاداة من عاده ، ومجانبة من خان سنته وابتداع في دينه ، واستثقال كل أمر يخالف شريعته .

قال تعالى : ^(٢)

﴿ لَا يَجِدُ قومًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ أَلَّا خَرِيْوَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

وهؤلاء أصحابه - ﷺ - قد قتلوا أحباءهم ، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته . وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول : « لو شئت لأتيتك برأسه » ^(٣) .

ح - حب القرآن الذي أتى به النبي - ﷺ وهدى به واهدى ، وتخلىق به . وهذا يقتضى تلاوته والعمل به وتفهمه ، وحب سنته والوقوف عند حدودها .

قال سهل بن عبد الله « علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ ، وعلامة حب النبي - ﷺ ،

(١) الدباء : اليقطين أو القرع ، وكان النبي - ﷺ - يحبه .

(٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) يعني رأس أبيه عبد الله بن سلول حين علم أن النبي - ﷺ - قد غضب عليه . لقاله المشهور عقب غزوة بنى المصطلق : « لعن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

حسب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا .. » .

ط — الشفقة على أمة محمد ونصحه لهم ، وسعيه في مصالحهم ، ورفع المضار عنهم .

وذلك تمثلا برسول الله — ﷺ — فقد كان بالمؤمنين رعوفا رحيمـا .

★★★

وقد اختلف الناس في تفسير حبة الله وحبة النبي — ﷺ — وكثرت عباراتهم في ذلك ، وليس ترجع في الحقيقة إلى اختلاف مقال ، ولكنها اختلاف أحوال .

— قال سفيان : « الحبة اتباع الرسول — ﷺ .

— وقال بعضهم : « حبة الرسول اعتقاد نصرته ، والذب عن سنته ، والانقياد لها وهيءة مخالفته » .

— وقال بعضهم : الحبة دوام الذكر للمحبوب .

— وقال بعضهم : الحبة الشوق إلى المحبوب .

— وقال بعضهم : « الحبة مواطأة^(١) القلب لمراد الرب ، يحب ما أحب ، ويكره ما كره .

★★★

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات الحبة دون حقيقتها .
وحقيقة الحبة : الميل إلى ما يوافق الإنسان ، وتكون موافقته له إما

(١) يقصد بالمواطأة : الموافقة .

لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة ، والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذينة وأشباهها ، مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له ، ولاستلذاذه بإدراكه بخاسه عقله وقلبه معانى باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء وأهلالمعروف ، والمأثور عنهم السير الجميلة ، والأفعال الحسنة ، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء ...

أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه ، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .

إذا تقرر لك هذا نظرت لهذه الأسباب كلها في حقه ﷺ ، فلعلمت أنه جامع لهذه المعانى الموجبة للمحبة :

فقد اتصف ﷺ بجمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن . وأما إحسانه وإنعامه على أمته فقد رأينا منه الكثير ، وكيف وصفه الله تعالى برأفته بهم ورحمته لهم ، وهدايته لإيامهم وشفقته عليهم ، واستنقاذهم به من النار ..

إذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا ، أو استنقذه من هكلة أو مضررة مدة التأذى بها قليل منقطع ، فمن منحه مالا يبدي من النعيم ، ووقفه مالا يفني من عذاب الجحيم أولى بالحب ، وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته ، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته ، أو قاص بعيد الدار لما يشار من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب ، وأولى بالليل .

وقد قال على — رضى الله عنه — في صفتة — ﷺ — « من رآه بديبة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه » .

وذكر عن بعض أصحابه — عليهما السلام — أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه .

★★★

وحرمة النبي — عليهما السلام — وتقديره وتعظيمه بعد موته لازم كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره — عليهما السلام ، وذكر حديثه وسنته ، وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعترته^(١) ، وتعظيم أهل بيته وصحابته .

قال أبو إبراهيم التجيبي : « واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ، ويتوفر ويستكئن من حركته ، ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ، ويتأدب بما أدبنا الله به .

★★★

هذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضى الله عنهم : — ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله عليهما السلام ، فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال : ^(٢)

﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾

ومدح قوما فقال ^(٣)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

(١) عترته : أهله وعشيرته الأقربون .

(٢) الحجرات : ٢ .

(٣) الحجرات : ٣ .

وَذُمْ قَوْمًا فَقَالَ: (١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادِونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ ﴾

وإن حُرمته ميتاً لحرمه حياً .

— وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي — عليهما السلام فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه في فمه هيبة منه رسول الله — عليهما السلام .

ويروى أن الإمام مالكا كان إذا أتاه الناس خرجت إليهم الحاربة فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم ، وإن قالوا الحديث دخل مغسله ، وأغسلت وتطيب ولبس ثياباً جدداً ، ولبس ساجة (٢) وتعمم ، ووضع على رأسه رداءه ، وتلقى له منصة ، فيخرج فيجلس عليها ، وعليه الخشوع ، ولا يزال يتبعه بالعود حتى يفرغ من الحديث رسول الله — عليهما السلام .

ولم يكن مجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله — عليهما السلام . وقيل مالك في ذلك فقال « إن أحب أن أعظم حديث رسول الله — عليهما السلام — ولا أحدث به إلا على طهارة متمنكاً » .

وكات يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم ، ؟ مستعجل ، وقال : أحب أن أفهم حديث رسول الله — عليهما السلام :

(١) الحجرات : ٤ .

(٢) الساج : الطيلسان .

— قال عبد الله بن المبارك « كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغه عقرب سرت عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله — ﷺ — فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبا » قال « نعم إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله — ﷺ ». .

— وكان قتادة يستحب أن لا يقرأ أحاديث النبي — ﷺ — إلا على وضوء ، ولا يحدث إلا على طهارة . .

— وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم .

★★★

وكل ذلك — وغيره كثير — إنما جاء من السلف الصالح والأئمة الكرام توقيراً للرسول — ﷺ — وحباً له ، وتعظيمها لستنه ووفاء لذكره ﷺ . .



المحتويات



صفحة

٥	• الإهداء
٦	• تقديم
	• الفصل الأول
	□ ملامع الصورة □
١٠	أولاً — الملامع الجسدية
١١	ثانياً — الملامع الخلقية والنفسية والعقلية :
١٤	١ — الحلم والاحتمال والغفور
١٥	٢ — الجود والكرم
١٧	٣ — الشجاعة والتجردة
١٩	٤ — الحياة والأغضاء
٢٠	٥ — حسن العشرة والأدب وبسط الخلق
٢١	٦ — الشفقة والرحمة
٢٣	٧ — الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم
٢٤	٨ — التواضع
٢٥	٩ — العدل والأمانة والشفقة وصدق اللهجة
٢٦	١٠ — الورق والصمت والتؤدة والمرءة وحسن المدى
٢٨	١١ — الزهد في الدنيا
٢٨	١٢ — الخوف من الله والطاعة له وشدة العبادة
٣٠	١٣ — الفصاحة والبلاغة
٣١	• الفصل الثاني
٣٤	□ شرف النسب وجلال المنشأ □
	• الفصل الثالث
٣٨	□ الرسول المعصوم □

٤٦	• الفصل الرابع □ المكانة الرفيعة
٦٩	• الفصل الخامس □ حقيقة إسراء
٨٨	• الفصل السادس □ اعجاز القرآن
١١٤	• الفصل السابع □ من حقوق النبي على المسلمين

طبع في مصر
دار الكتب العلمية

رقم الإيداع ١٩٨٦/٣٨٥٦



٦ شارع البرامق - عابدين - القاهرة - ت: ٩١٤٨٨١